

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي و البحث العلمي

جامعة أبي بكر بلقايد - تلمسان

كلية الآداب و العلوم الإنسانية و الاجتماعية

قسم اللغة و الأدب العربي

شعبة البلاغة و الأسلوبية

مذكرة تخرج لنيل شهادة الماجستير في البلاغة و الأسلوبية:

بغنوان

أسلوب الحكيم بين الفراءة و الحديث النبوي الشريف

من إعداد الطالبة:

◆ هيبة بن قو

أعضاء المناقشة:

- | | | |
|-------------------------|-------|-----------------------------------|
| ◆ أ. د. محمد مرتاض | رئيسا | أستاذ التعليم العالي جامعة تلمسان |
| ◆ أ. د. عبد اللطيف شرفي | مشرفا | أستاذ التعليم العالي جامعة تلمسان |
| ◆ أ. د. محمد طول | عضوا | أستاذ التعليم العالي جامعة تلمسان |
| ◆ أ. د. محمد زمرري | عضوا | أستاذ التعليم العالي جامعة تلمسان |
| ◆ د. عبد الجليل مصطفاوي | عضوا | أستاذ محاضر جامعة تلمسان |

السنة الجامعية: 1427هـ - 1428هـ / 2006م - 2007م

إلى

إلى من كنا ثمرة جهمهم و كدهم آباءنا و أمهاتنا، نغمّد الله
برحمته المتوفّين منهم، و أنعم بالصحة و العافية الباقيين.
-إلى كل الأساتذة الذين عملوا على إعدادنا طوال هذه الفترة
الدراسية، نذكر منهم: الأساتذة "مهاليل" - "مولاي" - "شنين" -
"عصامي" و عيسى مبروك".
-إلى طلبة قسم السنة الثانية شعبة إمام منتدب مدرّس.
-إلى كل طلبة 2005-2006.
نهدى هذا العمل المتواضع.



كلمة شكر

تمضي الأيام و تمر السنوات، و تبقى مشاعر المحبة و الامتنان راسخة تذكرنا بكل من كان سببا في نجاحنا.
أقل ما يمكن تقديمه بعد إنجاز هذا البحث، هو كلمة شكر إلى كل من ساعدنا من قريب أو بعيد في إنجاز هذا العمل.
نشكر أولا المدير العام السيد "مشتاوي" الذي رافقنا في هذه المدة الدراسية، و الذي كان مثالا لنا في الجدّ و الحرس على السير الحسن للدراسة كذلك نشكر مدير الدراسات السيد "بنوة توفيق".

و شكرنا الكبير إلى الأستاذ "هشماوي" الذي سيشرفنا بمناقشة هذا البحث، و الذي سيحتفل بحناء التصويب.
و لا ننسى أستاذ الخطابة السيد "بودية" و أستاذ التجويد السيد "بن أحمد" اللذان لم يبخلّا علينا بنصائحهما، و توجيهاتهما السديدة.
و في الأخير نشكر أستاذ المنهجية السيد "كامل" الذي أعطانا المبادئ الأساسية لإنجاز هذا البحث.



المقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم، الحمد لله فالحق الإصباح، و جاعل الليل سكنا نحمده و نستغفره و نتوب إليه، و نشهد أن محمد عبده و رسوله مثال الكمالات النفسية، و السرائر الطاهرة النقية، أما بعد:

يعد القرآن الكريم و الحديث النبوي الشريف خير مصدرين لدراسة "البلاغة العربية" ذلك أن القرآن الكريم حوى أكثر ما تحدث عنه البلاغيون كما انه كثيرا ما خرج عن تلك التقسيمات التي ذكروها فصنع تميزا خاصا، كما أن كلامه -صلى الله عليه و سلم- في غاية الروعة و البيان فهو في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم، و دراسة أي فن بلاغي من خلالهما يمنح تلك الدراسة حيوية مستمرة، لأن قيمة البلاغة لا تظهر إلا بالتذوق، و أسرار القرآن الكريم و الحديث النبوي الشريف البلاغية عظيمة لا حدود لها، و مما يثبت ما قلناه أن البلاغة عرفت أسمى مراحل تطورها في ظل دراسة الإعجاز القرآني، حيث كانت تبحث في أسرار تفوق كلام الله عز و جل على كلام البشر.

من أجل هذا رغبت أن تكون دراستي تطبيقا لإحدى مواضيع البلاغة العربية في القرآن الكريم و كذا في الحديث الشريف فوقع اختياري على موضوع أسلوب الحكيم لأسباب مختلفة بعضها ذاتية و أخرى موضوعية:

فمن الذاتية:

- إعجابي الشديد بهذا الأسلوب في تلقي المخاطب بغير ما يتربص و من تم رغبتني في إلمام أطرافه.

- وجد هذا الفن البلاغي في كل من القرآن الكريم و الحديث الشريف، و ارتباطه بأبعاد و حكم جليلة.

أما عن الموضوعية فهي:

- كون أسلوب الحكيم صورة من صور خروج الكلام عن مقتضى الظاهر دفعني إلى البحث في معنى هذا الخروج، و مدى مطابقته لمقتضى الحال الذي هو شرط البلاغة.

- رغبتني في استنباط العلاقة بين مفهوم أسلوب الحكيم و مفاهيم الأسلوب بصفة عامة.

- إدراكي أن لهذا الفن أهمية كبيرة في مراعاة الجانب النفسي، و جوانب أخرى مهمة.

و قد اقتضى موضوع بحثي استعمال منهجا وصفيا لأني بصدد وصف ظاهرة بلاغية موجودة في كل من القرآن الكريم و الحديث الشريف، كما أنه من الضروري استعمال المنهج المقارن عند محاولة الوقوف على خصوصيات أسلوب الحكيم في كل منهما، و كذا عندما تعرضت لعلاقة أسلوب الحكيم بمفاهيم الأسلوب في الفصل النظري، أما عن الأدوات الإجرائية فقد تعددت من إحصاء و تحليل و استنتاج، حيث كانت أول مرحلة في البحث استخراجا لنماذجه من القرآن الكريم و الحديث الشريف، ثم كان التحليل عند دراسة تلك النماذج، و بعدها استنتاج بعض الملاحظات التي تخصه.

و قد قسمت بحثي إلى أربعة فصول عرضت في الفصل الأول دراسة نظرية لهذا الفن البلاغي حتى أعرف به و تتوضح الرؤية حوله.

ثم كان الفصل الأول دراسة لنماذج أسلوب الحكيم في القرآن الكريم حيث تحدث عن مواضعه، و استخراجت بعض أبعاده و خصائص تلك الآيات الأسلوبية و بالطريقة نفسها عاجلت نماذج أسلوب الحكيم في الحديث الشريف حتى يتسنى لي إجراء نوع من المقارنة بينهما في الفصل الرابع.

كما تقدم هذه الفصول مدخل تحدثت فيه عن معنى خروج الكلام عن مقتضى ظاهره، و علاقته بمقتضى الحال و ذكرت صورته المختلفة، و ذلك لكون أسلوب الحكيم صورة من صورته.

و في الأخير وردت الخاتمة تلخيصا لأهم نقاط البحث، و استنتاجا لبعض الملاحظات حوله.

و لعل أهم مشكل واجهني في إنجاز هذا البحث هو قلة المصادر التي تحدثت عن هذا الموضوع، و بالتالي صعب جمع المادة الكافية له، كما أن نماذجه في كل من القرآن الكريم و الحديث الشريف ليست كثيرة.

مع هذا كان إصراري على تناول هذا الموضوع كبيرا لأنني أدركت قيمة تلك النماذج لأنها من القرآن الكريم و الحديث الشريف، و مجيء كلامه عز و جل، و كلام رسوله الكريم بطريقة خاصة ليس عبثا، و إنما وراءه كثير من المعاني و الأسرار.

و اعتمدت في هذا البحث مجموعة من الكتب البلاغية ككتاب "البيان و التبيين" للجاحظ و "مفتاح العلوم" للسكاكي، و كذا مجموعة من التفاسير كتفسير "سيد قطب"

و تفسير "القرطبي"، و تفسير "ابن كثير" و تفسير "الزمخشري"، و أيضا بعض الكتب التي عنيت بشرح الأحاديث "كعمدة القارئ" و "فتح الباري"، و التي اهتمت بدراسة السنة عامة.

و في الأخير لا يسعني إلا أن أحمد الله عز و جل على توفيقه إياي في إتمام هذا البحث، و أرجو أن أكون في ذلك وفقت في إعطاء موضوع هذا البحث حقه، و أن يكون فيه نفعا للقارئ و يقدم خدمة للبحث العلمي، و أن يجعل عملي خالصا لوجهه.

هيبة بن قـو

تلمسان في: 9 جمادى الأولى 1427هـ

الموافق لـ 05 جوان 2006م

المدخل

خروج الكلام عن مقتضى الظاهر

المدخل: خروج الكلام عن مقتضى الظاهر

مفصومه و علاقتها بمقتضى الحال

صور خروج الكلام عن مقتضى الظاهر

ما يخص الإسناد الخبري

ما يخص المسند إليه و كامل أجزاء الجملة

أ- مفهومه و علاقته بمقتضى الحال:

إن أهم ما يميز البلاغة هو مطابقة الكلام لمقتضى الحال، حيث عرفت هذه القاعدة على امتداد التاريخ، ففي صحيفة بشر بن المعتمر و التي نقلها عنه الجاحظ نجد أكثر ما يؤكد عليه هو المطابقة، فحول هذا يقول: « و المعنى ليس يشرف بأن يكون من معاني الخاصة وكذلك ليس يتضع بأن يكون من معاني العامة، و إنما مدار الشرف على الصواب و إحراز المنفعة على موافقة الحال، و ما يجب لكل مقام من المقال »¹.

ثم يضيف قائلاً: « ينبغي للمتكلم أن يعرف أقدار المعاني و يوازن بينها و بين أقدار المستمعين و بين أقدار الحالات، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاماً و لكل حالة من ذلك مقاماً، حتى يقسم أقدار الكلام على أقدار المعاني و يقسم أقدار المعاني على أقدار المقامات، و أقدار المستمعين على أقدار تلك الحالات »².
من هنا وجدنا عبارة "لكل مقام مقال" فالبلغاء أدركوا شدة الارتباط بين المقام و المقال، فجعلوا ذلك من أساسيات الفصاحة، قال تمام حسان « و لكن البلغاء في إطار شكلية البلاغة التي ذكرناها ربما فطنوا إلى أن اللغة ظاهرة اجتماعية و أنها شديدة الارتباط بثقافة الشعب التي يتكلمها و أن هذه الثقافة في جملتها يمكن تحليلها بواسطة حصر أنواع المواقف الاجتماعية المختلفة التي يسمون كلا منها "مقاماً" »³.

و معنى مطابقة الكلام لمقتضى الحال هو كون الكلام مطابقاً للحالة التي يتحدث عنها و مناسباً للموقف الذي يتحدث فيه، و قد اهتم العرب بذلك منذ القديم، فقال الحطيئة:⁴

1 - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ- "البيان و التبیین"- تحقيق: درويش جويدي- المكتبة العصرية صيدا- بيروت- 2001- 91/1.

2 - نفسه- 92/1.

3 -تمام حسان- "اللغة العربية معناها و مبناها"- عالم الكتب- القاهرة- ط3- 1998-ص337.

4 - ديوان الحطيئة- دار صادر- بيروت- ص72.

تَحَنَّنَ عَلَيَّ هَذَاكَ الْمَلِيكَ**فَإِنْ لِكُلِّ مَقَامٍ
مَقَالًا

و تحدث عنه النحاة و البلاغيون، و قالوا إن خير الكلام ما كان مطابقا لمقتضى الحال.⁵

كما أن "فكرة المقام" هذه هي المركز التي يدور حول علم الدلالة الوصفية في الوقت الحاضر، و هو الأساس الذي ينبنى عليه الشق أو الوجه الاجتماعي من وجوه المعنى الثلاثة، و هو الوجه الذي تتمثل فيه العلاقات و الأحداث و الظروف الاجتماعية التي تسود ساعة أداء المقال⁶.

و يتداخل مع مصطلح المقام مصطلحين آخرين هما السياق و الحال، فهي في العموم واحدة، و لكل واحد خصيصة تختص بها.

فمقامات الكلام متنوعة، فمقام الجنازة يعاكس مقام العرس، و ما يقوله الإنسان عند عيادة المريض، ليس ما يقوله عند تقديم تهاني النجاح.

فجميع هذا معروف لدى اللبيب، و هو ما يسمى مقتضى الحال، و يتدخل السياق الذي تقال فيه اللفظة، أو الجملة، أو النكتة، أو ما يشبه ذلك، حيث يلعب السياق الكلامي دورا مهما في تأدية الكلام حسب المقامات، و يتنوع بتنوع المقامات و الحال.⁷

من هنا يمكن القول أن المقام يرادف معنى مقتضى الحال، و كلاهما مرتبطان بالسياق، فالمتكلم يحاول أن يراعي المقام أو مقتضى الحال بحسن استعماله السياقي، فيكون بذلك السياق عاكسا لمقتضى الحال أو المقام.

⁵ - أحمد مطلوب- "معجم المصطلحات البلاغية و تطورها"- مكتبة لبنان- ط2- 1996- ص642.

⁶ - تمام حسان- "اللغة العربية معناها و مبناها"- ص337.

⁷ - صالح بلعيد- "نظرية النظم"- دار هومة-الجزائر-2002-ص59.

نتنقل للحديث عن مصطلحين بلاغيين آخرين هما: مقتضى الظاهر، و خروج الكلام عن مقتضى الظاهر، و علاقتهما بمقتضى الحال.

فمقتضى الظاهر هو أن يكون الكلام مطابقاً للواقع أو أن تؤدي الجملة و العبارات المعنى التي تحمله الألفاظ؛ أي ليس فيها تأويل و توجيه غير ما تدل عليه الكلمات، أو الكلام في الظاهر⁸.

و العكس بالنسبة للخروج عن مقتضى الظاهر فالعبارات، و الألفاظ فيه تحمل تأويلاً و توجيهاً غير ما تدل عليه الكلمات في الظاهر⁹.

ما يميز هذا المفهوم الأخير هو تدخل كلمة التأويل و التي تغيب في المفاهيم السابقة- مقتضى الحال و المقام- أما عن مفهوم السياق فهو يقترب من المفهومين الآخرين- مقتضى الظاهر و الخروج عن الظاهر- فالمتكلم يختار سياقاً يحاول فيه أن يطابق المقام، فيلجأ إلى عدة وسائل لتحقيق غرضه، و من بين الوسائل التي يستخدمها مطابقة الكلام لمقتضى الظاهر؛ أي أنه يستخدم كلمات و عبارات خالية من التأويل أو يخرج عن مقتضى الظاهر بأن يحمل كلامه تأويلات.

من هنا كان مفهوم مقتضى الحال عام يقتضي لتحقيقه كل من موافقة الكلام لمقتضى الظاهر و خروجه عن ذلك.

أما عن الأصل في الكلام فهو أن يكون مطابقاً لمقتضى الظاهر، و لكن قد يخالف هذا الأصل، و تلك المخالفة لا تكون إلا لأسرار و مقاصد يقصد إليها البلاغي، « و ينبغي أن تعلم أن هذه المخالفة، إنما هي لظاهر الحال، فالكلام و إن خالف ما يقتضيه الظاهر، فإنه قد وافق ما يقتضيه المعنى و يتطلبه، و لا يظهر ذلك إلا لمن سير أغوار المعاني، و تغلغل بفكره في أعماق التراكيب، فهو الذي

⁸ - أحمد مطلوب- "معجم المصطلحات البلاغية و تطورها"- ص642- نقلا عن شرح عقود الجمان- ص27.

⁹ - أحمد مطلوب- "معجم المصطلحات البلاغية و تطورها"- ص483- نقلا عن شرح عقود الجمان- ص27.

يتجلى له ما وراء مخالفة الظاهر من أسرار و مزايا و أهداف يقصد إلى تحقيقها»¹⁰.

و نجد البلاغيين يذكرون كثيرا هذه المصطلحات - مقتضى الظاهر و الخروج عن مقتضى الظاهر - و يذكرون صورا كثيرة لخروج الكلام عن مقتضى ظاهره، و لكن بطريقة مبعثرة حتى يتعذر على الباحث حصرها، و استخدامهم هذا المصطلح أكثر ما يكون في حديثهم عن علم المعاني، حيث أنهم يجعلون الأغراض البلاغية التي يخرج عنها الكلام عن قاعدته المعروفة خروجاً عن الظاهر. ففي موضوع الخبر مثلا يجعلون له غرضين هما: فائدة الخبر و لازم الفائدة،

و هذا عندهم مقتضى الظاهر، ثم يذكرون الأغراض البلاغية الأخرى للخبر و التي تفهم من سياقه منها الفخر، المدح، الاسترحام، التحسر... و يجعلونها خروجاً عن مقتضى الظاهر؛ و الخبر ثلاثة أضرب: ابتدائي - طلبى - إنكاري و ما اختلف عن هذا فهو خروج عن مقتضى الظاهر¹¹.

أما عن اللغويين فتجدهم يصفون بعض صور خروج الكلام عن مقتضى الظاهر بسنن العرب في كلامها¹².

ب- صور خروج الكلام عن مقتضى الظاهر:

صور خروج الكلام عن مقتضى الظاهر كثيرة منها ما يخص الإسناد الخـ

و منها ما يخص المسند إليه و المسند و كامل أجزاء الجملة.

¹⁰ - بسيوني عبد الفتاح فيود- "من بلاغة النظم القرآني"- مطبعة الحسين الإسلامية- 1997-ص132.

¹¹ - محمد أحمد نحلة- "في البلاغة العربية علم المعاني"- دار المعرفة الجامعية- 2002-ص44.

¹² - ينظر: "الصاجي في فقه اللغة العربية"- لابن فارس- ص160- و "فقه اللغة و سر العربية"- للتعاليبي- ص390.

1- ما يخص الإسناد الخبري (الخروج عن أضرب الخبر):

تحدث البلاغيون عن الخبر و قسموه إلى ثلاثة أضرب، سمو الأول ابتدائي،

و الثاني طلبيا و الثالث إنكاريا، و يعد المبرد (285هـ) أول من أشار إلى هذه الأقسام، ومعنى كون الخبر ابتدائيا هو كونه خاليا من أي مؤكدات، أما الطلبي ما احتوى على مؤكد واحد، و الإنكاري ما احتوى على مؤكدين أو أكثر، و على المتكلم أن يكون عالما بأحوال المخاطبين، خبيرا بنفسياتهم لكي يعرف أي الأقسام يستعمل، فإن كان المخاطب خالي الدهن من الحكم ألقى الكلام عليه من غير تأكيد، و إذا كان المخاطب مترددا في إسناد أحد الطرفين إلى الآخر ألقى إليه الكلام مؤكدا بمؤكد واحد، و إن كان المخاطب منكرا للحكم و جب توكيد الخبر له حسب إنكاره بمؤكد أو أكثر¹³.

ولكن قد يقتضي المقام أن يفترض المتكلم حالا في المخاطب غير حاله الحقيقية التي هو عليها، فيتزل خالي الدهن مترلة المتردد أو المنكر، و يتزل المنكر مترله غير المنكر، و هذا خروج عن مقتضى الظاهر، و هو على ثلاثة أقسام:¹⁴

1- تزييل خالي الدهن مترلة المتردد أو المنكر: و ذلك لا يكون إلا

لأسرار يلتفت إليها المتكلم و يعيها البصير بلطائف هذه اللغة و دقائقها، فعندما تكون الجمل المقدمة في سياق الكلام متضمنة ما يشير إلى الخبر، و يلوح بها و يومئ إليه، فإنها تثير في النفس المتلقية تساؤلا يجعلها تتطلع و تستشرق إلى معرفة الخبر و الوقوف عليه، و عندئذ تأتي جملة الخبر مؤكدة لتزييل ما أثير في نفس المخاطب من تساؤلات و استشراقات مترلة إياه مترلة المتردد السائل، مثل قوله

¹³ - القزويني- "الإيضاح في علوم البلاغة"- تحقيق: عبد الحميد هنداوي- مؤسسة المختار- القاهرة- ص2-2003- ص28.

¹⁴ - بسبوني عبد الفتاح فيود- "علم المعاني دراسة بلاغية و نقدية لمسائل المعاني"- مؤسسة المختار- القاهرة- ط2-2000-ص39-41/42.

تعالى: ﴿ وَ أَوْحِيَ إِلَى نُوحٍ أَنَّهُ لَنْ يُؤْمِنَ مِنْ قَوْمِكَ إِلَّا مَنْ قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ. وَ اصْنَعِ الْفُلَكَ بِأَمْرِنَا وَ وَحْيِنَا وَ لَا تَخَاطِبُنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُمْ مُغْرَقُونَ ﴾¹⁵.

2- تزييل المنكر منزلة غير المنكر لعدم الاعتداد بإنكاره، لأنه لو فكر و تأمل لارتدع عن إنكاره، و أفلح عن جحوده و تكذيبه، قال تعالى: ﴿ وَ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ ﴾¹⁶، نجد أن الخطاب موجه إلى المشركين المعاندين الذين لا يقرون بالوحدانية لله تعالى، و كان مقتضى حالهم أن يلقي إليهم الكلام مؤكداً، و لكنهم نزلوا منزلة غير المنكرين، لعدم الاعتداد بهذا الإنكار.

3- تزييل غير المنكر منزلة المنكر، إذا بدا عليه شيء من أمارات الإنكار، فيلقى إليه الخبر مؤكداً مثل قوله عز وجل: ﴿ وَ الَّذِينَ حَمَلُوا السَّيِّئَاتِ ثُمَّ تَابُوا مِنْ بَعْدِهَا وَ آمَنُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾¹⁷، نجد أن الذين تابوا و آمنوا لا ينكرون مغفرة الله و رحمته، و لكنهم لما كانوا قد ارتكبوا السيئات و اقترفوا الذنوب و الآثام صاروا في خوف من عقاب الله، و كلما تذكروا ما اقترفوا اقشعرت جلودهم و تذكروا عذاب الله، فتزلت حالتهم هذه، و ما هو فيه من خوف و قلق و عدم أمن، منزلة من ينكر رحمة الله و مغفرته، و ألقى إليهم الخبر مؤكداً.

2- ما يخص المسند إليه و كامل أجزاء الجملة:

و صوره كثيرة منها: وضع المضمرة موضع المظهر، وضع المظهر موضع المضمرة، الالتفات، أسلوب الحكيم، التغليب.

¹⁵ -سورة هود- الأيتان 36-37.

¹⁶ - سورة البقرة- الآية 163.

¹⁷ - سورة الأعراف- الآية 153.

و قد اعتاد البلاغيون أن يتحدثوا عن هذه الظواهر الأسلوبية بعد انتهائهم من الحديث عن أحوال المسند إليه، و في الحقيقة هي ليست قاصرة على المسند إليه، بل تتعداه إلى المسند، و متعلقات الفعل و كل أجزاء الجملة.

1- وضع المضمير موضع المظهر: قد يخرج الكلام على خلافه، فيوضع

المضمير موضع المظهر كقولهم: نعم رجلا زيد، مكان نعم الرجل، و قولهم هو أو هي زيد عالم مكان الشأن أو القصة، ليتمكن ما يعقبه في ذهن السامع¹⁸.

فالغرض البلاغي من وضع الضمير موضع الاسم الظاهر، هو الإيضاح بعد الإبهام أو التفصيل بعد الإجمال، حتى يتمكن المعنى في ذهن السامع، و يستقر في نفسه، و يثبت في فؤاده، كقوله عز و جل: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾¹⁹. فضمير الشأن هو لم يتقدم له مرجع، و إنما فسر بالجملة بعده²⁰.

2- وضع المظهر موضع المضمير: أما وضع المظهر موضع المضمير فيكون

لأغراض بلاغية كثيرة يقتضيها المقام، و يقصد إليها البلاغي، فيعدل عن الضمير إلى اسم الإشارة لكمال العناية بالمسند إليه، و تمييزه و إبرازه، كقول الشاعر:

كَمْ عَاقِلٍ عَاقِلٍ أَعَيْتَ مَذَاهِبُهُ*** وَ جَاهِلٍ جَاهِلٍ تَلْقَاهُ مَرْزُوقًا

هَذَا الَّذِي تَرَكَ الْأَوْهَامَ حَائِرَةً*** وَ صَيَّرَ الْعَالِمَ النِّحْرِيرَ زَنْدِيقًا

أو للتنبية على غباوة و بلاهة المخاطب كقول الفرزدق²¹ مخاطب جرير:

أَوْلَئِكَ آبَائِي فَحَنِّنِي بِمِثْلِهِمْ*** إِذَا جَمَعْتُنَا يَا جَرِيرَ الْمَجَامِعُ

¹⁸ - جلال الدين القزويني- "التخليص في علوم البلاغة"- تحقيق: عبد الرحمن البرقوتي- دار الفكر العربي- 1914- ص91.

¹⁹ - سورة الإخلاص- الآية 1.

²⁰ - بسيوني عبد الفتاح فيود- "علم المعاني"- ص199.

²¹ - ديوان الفرزدق- تحقيق: علي مهدي زيتون- دار الجيل- بيروت- 44/2.

و قد يقصد بوضع الظاهر موضع الضمير زيادة التمكين و التقرير، و قوة
تبيته في الأنفس كقوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ، اللَّهُ صَمَدٌ﴾²².

و قد يقصد به إدخال الروح في نفس السامع و تربية المهابة، حتى يقبل
على الامتثال و الخضوع، كقول الخليفة: أمير المؤمنين يأمر بكذا، فمقتضى
الظاهر أن يقول أنا أمر²³.

3- أسلوب الالتفات: و هو انصراف المتكلم عن المخاطبة إلى الإخبار،
و عن الإخبار إلى المخاطبة، و ما يشبه ذلك، و من الالتفات الانصراف عن المعنى
يكون فيه إلى معنى آخر، قال عز و جل: { حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ
بَرِيحٌ طَيِّبَةٌ }²⁴.
و قال جرير:²⁵

مَتَىٰ كَانَ الْخِيَامُ بِذِي طُلُوحٍ ** سُقِيَتِ الْغَيْثَ أَتَيْهَا الْخِيَامُ

أَتْنَسَىٰ إِذَا تَوَدَّعْنَا سُلَيْمِي ** بِفَرْعِ بَشَامَةِ سُقِي الْبَشَامُ²⁶

و يعرفه الثعالبي بقوله: « هو أن تذكر الشيء و تتم معنى الكلام به، ثم
تعود لذكره كأنك تلتفت إليه »²⁷.

و قد أهمل البلاغيون النوع الثاني فلم يتحدثوا عنه، و فضلوا القول في
النوع الأول²⁸.

²² - سورة الإخلاص- الآيتان 1-2.

²³ - بسيوني عبد الفتاح فيود- "علم المعاني"- ص201/203.

²⁴ - سورة يونس- الآية 22.

²⁵ - ديوان جرير- دار صادر- بيروت- ص416/417.

²⁶ - عبد الله بن المعتز- "علم البديع"- تحقيق: اغناطيوس كراتشوفسكي- دار المسيرة- ص58/59.

²⁷ - أبو منصور الثعالبي- "فقه اللغة و سر العربية"- تحقيق: أملين نسيب- دار الجيل- بيروت- ص475.

²⁸ - بسيوني عبد الفتاح فيود- "علم المعاني"- ص205.

4-أسلوب القلب: و هو أن يجعل المتكلم أحد أجزاء الكلام مكان جزء آخر يجعله مكانه على وجه يثبت حكم كل منها للآخر²⁹.

و قد قسم البلاغيون القلب إلى قسمين³⁰:

1/- قلب معنوي: و هو أن يكون الداعي للقلب من جهة المعنى، وذلك لتوقف صحته عليه ويكون اللفظ تابعا، و منه قولهم: عرضت الناقة على الحوض إذ الأصل: عرضت الحوض على الناقة.

2/- قلب لفظي و هو أن يكون الداعي إليه من جهة اللفظ بأن تتوقف صحة اللفظ عليه، و يكون المعنى تابعا، كما إذا وقع ما هو في موقع المبتدأ نكرة و ما هو في موقع الخبر معرفة، و مثاله قول القطامي:

قفى قبل التفارق باضباعا*** ولايك موقف منك الوداعا³¹

فالقلب في قوله: ولايك موقف منك الوداع، لأن الشاعر عرف "الوداع" و هو في موضع الخبر، و نكر "موقف منك" و هو في موضع المبتدأ، و هو قلب لفظي.

و عن القلب يقول السكاكي: « و إن هذا النمط مسمى فيما بيننا بالقلب،

و هي شعبة من الإخراج لا على مقتضى للظاهر، و لها شيوع في التراكيب، و هي مما يورث الكلام ملاحه و لا يشجع عليها إلا كمال البلاغة، تأتي في الكلام و في الأشعار³².

²⁹ - نفسه- ص217.

³⁰ - نفسه- ص217/218.

³¹ - نفسه-الصفحة نفسها.

³² - أبو يعقوب يوسف السكاكي- "مفتاح العلوم"- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- ص91.

و يطلق جهابذة اللغة مصطلح القلب على الكلمات التي تحتوي على نفس الحروف و تختلف في الترتيب مثل: جذب و جبد³³.

5- أسلوب التغليب: هو إعطاء أحد المتصاحبين أو المتشابهين حكم

آخر، يجعله موافقا له في الهيئة أو المادة، كما في قوله تعالى: ﴿وَصَدَّقَتْ بِكَلِمَاتِ رَبِّهَا وَكُتِبَ عَلَيْهَا مِنَ الْقَوَاتِينِ﴾³⁴، فكان مقتضى الظاهر أن يقال: و كانت من القانات، و من التغليب خطاب الواحد خطاب الاثنان و الجمع، و خطاب المثني مخاطبة الجمع³⁵.

فينحاطب الواحد بلفظ الجمع إذا أريد بالخطاب هو و من معه: قال الله جل ثناؤه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعَدَّتِهِنَّ﴾³⁶، فخطوب - صلى الله عليه و سلم- بلفظ الجمع لأنه أريد هو و أمته³⁷.

و يخاطب الواحد بلفظ الاثنان، كقوله عز و جل: ﴿قَالُوا اجْتَنَبْنَا لَتَلْفِئْنَا نَمَّا وَجَدْنَا لَكُلِّهِ آباءَنَا وَ تَكُونَ لَكُمْ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ﴾³⁸، فكان مقتضى الظاهر أن يقال و تكون لك الكبرياء في الأرض، فعدل عن هذا إلى قوله "لكما"³⁹.

³³ - جلال الدين السيوطي- "المزهر في علوم اللغة وأنواعها"- تحقيق: محمد أحمد جاد المولى- دار الجيل- بيروت-

476/1.

³⁴ - سورة التحريم- الآية 12.

³⁵ - بسيوني عبد الفتاح فيود- "علم المعاني"- ص221/222.

³⁶ - سورة الطلاق- الآية 1.

³⁷ - أبو الحسين أحمد بن فارس- "الصاحبي في فقه اللغة العربية و مسائلها و سنن العرب في كلامها"- تحقيق:

أحمد حسن يسبح- منشورات محمد علي بيضون- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- 1997- ص160.

³⁸ - سورة يونس- الآية 78.

³⁹ - بسيوني عبد الفتاح فيود- ص222.

6-المخالفة في صيغ الألفاظ: بأن يعبر عن المستقبل بلفظ الماضي أو

باسم الفاعل أو المفعول، و عن الماضي بلفظ المضارع، و عن المصدر أو المضارع بلفظ الأمر⁴⁰.

- التعبير بلفظ المستقبل عن الماضي: تنبيها على تحقق وقوعه نحو: ﴿وَيَوْمَ

يُنْفَخُ فِيهِ الصُّورُ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ﴾⁴¹، و قوله: ﴿وَنَادَى أَصْحَابَ النَّارِ﴾⁴²... جعل المتوقع الذي لا بد من وقوعه بمتزلة الواقع.

- التعبير عن المضارع باسم الفاعل، كقوله عز و جل: ﴿وَإِنَّ الدِّينَ

لَوَاقِعٌ﴾⁴³.

- التعبير عن المضارع باسم المفعول، كقوله عز من قائل: ﴿ذَلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لَهُ

النَّاسُ وَ ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾⁴⁴.

- التعبير عن الماضي بلفظ المضارع مثل قوله عز و جل: ﴿وَ اللَّهُ الَّذِي

أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُبْرِئُ سَحَابًا فَسُقْنَاهُ إِلَىٰ بَلَدٍ مَّيِّتٍ﴾⁴⁵، فقد عبر بلفظ المضارع في قوله فتثير سحابا استحضر لصورته العجيبة البديعة الدالة على القدرة الإلهية.

و يعتبر ابن الأثير المخالفة في صيغ الألفاظ من باب الالتفات، فعند

تعريف الالتفات يقول: "و حقيقته مأخوذة من التفات الإنسان عن يمينه و شماله،

فهو ينتقل بوجهه تارة كذا، و تارة كذا، و كذلك يكون هذا النوع من

الكلام خاصة، لأنه ينتقل فيه عن صيغة إلى صيغة، كالانتقال من خطاب حاضر

⁴⁰ - نفسه- ص224-225.

⁴¹ - سورة النمل- الآية 87.

⁴² - سورة الأعراف- الآية 50.

⁴³ - سورة الذاريات- الآية 60.

⁴⁴ - سورة هود- الآية 103.

⁴⁵ - سورة فاطر- الآية 9.

إلى غائب، أو من خطاب غائب إلى حاضر، أو من فعل ماضي إلى مستقبل، أو من مستقبل إلى ماضٍ⁴⁶.

هذه نظرة عامة عن صور خروج الكلام عن مقتضى الظاهر، و أسلوب الحكيم صورة من صوره، لم نذكر تعريفه لأننا سنتعرض له بالتفصيل في هذا البحث، و لصور خروج الكلام عن مقتضى ظاهره أسرار و دقائق بلاغية، نلمسها أكثر في القرآن الكريم، فهي تجسد فكرة المقام، و أن لكل حال ما يناسبه من الكلام، من أجل هذا قدمنا سابقا علاقة مقتضى الظاهر بمقتضى الحال، حتى نرفع الالتباس بين المصطلحين، و في هذا البحث سنربط فن "أسلوب الحكيم" مع القرآن الكريم و الحديث النبوي الشريف، لتذوق بعض أسرارها فيها، و نتلمس حسن موافقته للمقامات التي ورد فيها.

46 - أبو الفتح ضياء الدين ابن الأثير- "المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر"- تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد- المكتبة العصرية- بيروت- 1990- 3/2.

الفصل الأول

أسلوب الحكيم في البلاغة العربية
و علاقته بمفاهيم الأسلوب

أسلوب الحكيم في البلاغة العربية و علاقته بمفاهيم الأسلوب

-I أسلوب الحكيم في البلاغة العربية

تعريفه

أقسامه

أسباب وقوعه

نظرة تاريخية

موقعه في البحث البلاغي

تداخله مع فن القول بالموجب

أهميته

-II علاقة أسلوب الحكيم بمفاهيم الأسلوب

(1) علاقة البلاغة بالأسلوب

(2) الأسلوب عند البلاغيين

(3) الأسلوب عند الأسلوبيين

(4) مدى توافق أسلوب الحكيم مع هذه المفاهيم

I- أسلوب الحكيم في البلاغة العربية:

(1)- تعريفه:

تعودنا إزاء تعريف أي مصطلح، سواء كان صرفياً أو نحوياً أو بلاغياً، أن نذكر مفهومه اللغوي ثم الاصطلاحى، و غالباً ما نجد علاقة وطيدة بينهما، غير أننا عند تعريف أسلوب الحكيم لغة و اصطلاحاً، فإننا نجد نوعاً من الصعوبة في إدراك العلاقة بينهما، لأسباب منها: أن المصطلح مركب، و في تعريفه اللغوي يفصل إلى كلمتين،

و سبب آخر يرجع إلى كثرة مفاهيم كلمة أسلوب، التي اشتمل عليها هذا الفن البلاغى، لهذا سنكتفي بمفهوم عام لغوي لكلمة أسلوب، و سنتعرض لها بالتفصيل في عنصر آخر لندرك علاقتها بالمفهوم الاصطلاحى.

أ- لغة:

*أسلوب: السين و اللام و الباء أصل واحد، و هو أخذ الشيء بخفة و اختطاف، يقال سَلَبْتُهُ ثَوْبَهُ سَلْبًا⁴⁷ ، و يقال للسطر من النخيل أسلوب، و كل طريق ممتد فهو أسلوب، قال: و الأسلوب الطريق و الوجه، و المذهب، يقال: أنتم في أسلوب سوء،

و يجمع أساليب، و الأسلوب الطريق تأخذ فيه و الأسلوب الفن، يقال: أخذ فلان في أساليب من القول أي أفانين منه⁴⁸.

⁴⁷- أبو الحسن أحمد بن فارس- "معجم مقاييس اللغة"- تحقيق عبد السلام محمد هارون- دار الجيل- بيروت- 1991- 92/3- مادة (سلب).

⁴⁸- ابن منظور- "لسان العرب"- دار صادر- بيروت- 473/1- مادة (سلب).

*الحكيم: الحاء و الكاف و الميم أصل واحد و هو المنع، و أول ذلك الحكم،

و هو المنع من الظلم، و سميت حكمة الدابة لأنها تمنعها، يقال: حكمت الدابة و أحكمتها، و يقال: حكمت السفينة و أحكمتها، إذا أخذت على يديه.
قال جرير⁴⁹:

أَبْنِي حَنِيفَةَ أَحْكَمُوا سَفِينَاءَكُمْ *** إِنِّي أَخَافُ مَلِكِيكُمْ أَنْ أَخْضَبَا

و الحكمة هذا قياسها، لأنها تمنع من الجهل⁵⁰.
و الله سبحانه و تعالى أحكم الحاكمين، و هو الحكيم له الحكم، سبحانه و تعالى،

و قيل الحكيم ذو الحكمة، و الحكمة عبارة عن معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم،

و يقال لمن يحسن دقائق الصناعات و يتقنها: حكيم⁵¹.

ب- اصطلاحاً:

هو تلقي المخاطب بغير ما يترقب، بحمل كلامه على خلاف مراده تنبيهاً على أنه الأولى بالقصد، أو السائل بغير ما يتطلب بتزليل سؤاله مترلة غيره، تنبيهاً على أنه الأولى بحاله أو المهم له⁵².

(2) - أقسامه:

من تعريفنا لأسلوب الحكيم يتبين وجود قسمين له⁵³:

⁴⁹- ديوان جرير - دار صادر - بيروت - ص 47.
⁵⁰- ابن فارس - "معجم مقاييس اللغة" - 91/2 - مادة (حك).
⁵¹- ابن منظور - "لسان العرب" - 140/12 - مادة (حك).
⁵²- القزويني - "الإيضاح في علوم البلاغة" - ص 84.
⁵³- نفسه - الصفحة نفسها.

أ- تلقي المخاطب بغير ما يترقب كقول القبعثري للحجاج لما قال له متعودا بالقيد، لأحملنك على الأدهم "مثل الأمير يحمل على الأدهم و الأشهب" فإنه أبرز وعيده في معرض الوعد و أراه بالطف وجه أن من كان على صفته في السلطان و بسطة اليد، فجدير بأن يُصَفِدَ لا أن يَصْفِدَ*، و كذا قوله له لما قال له في الثانية "إنه حديد" لأن يكون حديدا خيرا من أن يكون بليدا.

ب- تلقي السائل بغير ما يتطلب بتزليل سؤاله منزلة غيره و الأمثلة هنا عديدة، في القرآن مثلا قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِبَتُ لِلنَّاسِ وَ الْعَجْمِ﴾⁵⁴ فالناس هنا سألوا عن ماهية الأهلة و أجيبوا ببيان منافعها.

و نذكر بعض الأمثلة في كتاب علم البديع لعبد العزيز عتيق⁵⁵:
قيل لتاجر كم رأس مالك؟ فقال إني أمين و ثقة الناس بي عظيمة، و قيل لشيخ هرم: كم سنك؟ فقال: إني أنعم بالعافية.

ففي السؤال الأول صرف التاجر سائله عن رأس ماله ببيان ما هو عليه من الأمانة و عظم ثقة الناس فيه إشعار بأن هاتين الصفتين و أمثالهما أجلب للربح، و أضمن لنجاح التجارة، و في السؤال الثاني ترك الشيخ الهرم الإجابة عن السؤال الموجه إليه،

و صرف سائله في رفق عن ذلك، و أخبره أن صحته موفورة، إشعار للسائل بأن السؤال عن الصحة أولى و أجدر.

(3) - أسباب وقوعه:

الأصل في الجواب أن يكون مطابقا للسؤال، و قد يعدل في الجواب عما يقتضيه السؤال لأسباب منها:

* - صَفِدَ: أوثق و شد و قيدها بالحديد و غيره، أما أَصْفِدَ: أعطى و وصل- من لسان العرب- 256/3- مادة(صفد).

⁵⁴- سورة البقرة- الآية 189.

⁵⁵- عبد العزيز عتيق- "علم البديع"- دار النهضة العربية- بيروت- 1985- ص182.

- أ- التنبيه على أن السؤال يجب أن يكون على النحو الذي أجيّب عليه⁵⁶.
- ب- إذا كان السائل قصده التّنعّت⁵⁷، نحو قوله عز و جل: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَنِ الرُّوحُ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾⁵⁸.
- ج- الرغبة في الإيجاز، خاصة إذا كان السؤال يتطلب شرحاً طويلاً قد يدركه السامع أولاً.
- د- إثارة ملكة التطلع، فعدم الإجابة عن السؤال المطروح يؤدي إلى فضول السائل، وقد كان القرآن هو كتاب العربية الأولى حين نزل على الرسول- في هذه الصحراء- يقدر إحساس العرب بلغته فكان يكتفي باللمحة و يجتزئ بالإشارة كي يثير ملكة التطلع إلى ما وراء هذه الإشارات و استشفاف ما كانت هذه الألفاظ دليلاً عليه⁵⁹.
- ه- كون السائل أعجز من أن يفهم الجواب على الوجه الصحيح، فتصرفه إلى النظر فيما هو أنفع له و أجدى عليه⁶⁰.
- و- عدم الرغبة في المجاهمة، خاصة إذا كان رأيك مخالفاً لمن يحدثك، فهذه الطريقة أنت تصرف محدثك في شيء من اللباقة عن الموضوع الذي هو فيه إلى ضرب من الحديث تراه أجدر و أولى⁶¹.
- و مما يسهّل استعمال هذا الأسلوب، و الاستفادة منه كون جملة المتحدث أو سؤاله ذات دلالات مختلفة، لاحتوائها مثلاً على اشتراك لفظي.

⁵⁶- جلال الدين السيوطي- "الإتقان في علوم القرآن"- دار الفكر-بيروت-لبنان 1996-573/2.

⁵⁷- نفسه-574/2

⁵⁸- سورة الإسراء-الآية85

⁵⁹- أحمد خليل-"المدخل إلى دراسة البلاغة العربية"- دار النهضة العربية- بيروت لبنان- 1998-ص16.

⁶⁰- علي الجارمت-مصطفى أمين-"البلاغة الواضحة مع دليلها"-ديوان المطبوعات الجامعية-وهران-ص295.

⁶¹- نفسه-ص295.

فالناظر في الجملة العربية يرى أنها ذات نوعين من الدلالة، الأولى أن تكون ذات دلالة قطعية تدل على معنى واحد لا تحتمل غيره، و الأخرى تحتمل أكثر من معنى لأسباب منها الاشتراك اللفظي⁶².
من ذلك قول الشاعر:

و لما نعى الناعي سأله خشية *** و للعين خوف البين تسكاب
أمطار

أجاب قضي! قلنا قضي حاجة العلا *** فقال مضى! قلنا بكل
فخار

فقول قضي هنا يريد بها مات، و لكنهم حملوها على إنجاز الحاجات و قضائها،
و كذلك يراد بها مات⁶³.

عموما فإن وقوع هذا الأسلوب يجسد فكرة "لكل مقام مقال"، ذلك أن الظروف الكائنة أثناء التحدث تقتضي الإجابة بطريقة مخصوصة توافقها، « و كان من رأي البلاغيين أن "لكل مقام مقال" لأن صورة المقال تختلف في نظر البلاغيين بحسب المقام،

و ما إذا كان يتطلب هذه الكلمة أو تلك، و هذا الأسلوب أو ذاك⁶⁴.
استعمل العرب هذا الأسلوب لأغراض مختلفة كالتظرف أو التخلص من إخراج السائل، أو تقديم الأهم أو التهكم⁶⁵.

⁶²- فاضل صالح السمرائي-"الجملة العربية و المعنى"- دار ابن حزم- بيروت- لبنان-2002-ص13-14.

⁶³- البلاغة الواضحة-ص296.

⁶⁴- تمام حسان-"اللغة العربية معناها و مبناها"-ص337.

⁶⁵- عبد العزيز عتيق-"علم البديع"-ص183.

(4) - نظرة تاريخية:

لعل أول من تحدث عن هذا الفن البلاغي هو الجاحظ (255هـ) عندما عقد في كتابه "البيان والتبيين" بابا تحت اسم "اللغز في الجواب"⁶⁶، و لا غرابة في ذلك فالجاحظ كما هو معروف يعتبر عند أكثر البلاغيين مؤسس البلاغة العربية « و لعلنا لا نبالغ إذا قلنا بعد ذلك كله أن الجاحظ يعد -غير منازع- مؤسس البلاغة العربية- فقد أفرد لها أول مرة كتابه "البيان والتبيين" و نشر فيه كثيرا من ملاحظات معاصريه »⁶⁷.

و هذا الباب الذي عقده هو عبارة عن مجموعة من الأمثلة، فهو لم يقيم بوضع القواعد و المصطلحات و إنما اعتمد على ذوقه، « فمنهج الرجل ينهض على أساس من الذوق الخالص، و يعتمد على حس المؤلف الأدبي الذي أرهقه طول التمرس بالقراءة الأدبية و تمييز جيد الأدب من رديئه، مما يعتمد على النظرية العلمية المتكامل »⁶⁸.

و أمام هذا المنهج صعب على البلاغيين و النقاد الاهتمام بالجانب النظري له فأشادوا ببلاغته من ناحية أسلوبه في الكتابة، و اهتموا بذلك أكثر الاهتمام⁶⁹، و رغم هذا فإن حمل الكتاب في ثنايا نصوصه و أخباره و طرائفه أصول كثير من الموضوعات، و الصور البلاغية كان منطلقا لمباحث متعددة نماها البيانون بعده، و انطلقوا منها، و بنوا عليها⁷⁰.

⁶⁶ - نفسه - ص 183.

⁶⁷ - شوقي ضيف- "البلاغة تطور و تاريخ"- دار المعارف- القاهرة- ط 11- ص 58/57.

⁶⁸ - أحمد جمال العمري- "المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز"- مكتبة الخانجي- القاهرة- 1990- ص 102.

⁶⁹ - محمد الصغير بناني- "النظريات اللسانية و البلاغية و الأدبية عند الجاحظ"- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- 1994- ص 10.

⁷⁰ - شفيق السيد- "البحث البلاغي عند العرب تأصيل و تقييم"- دار الفكر العربي- ط 2- 1996- ص 80.

فهذا الباب الذي عقده كما قلنا هو عبارة عن مجموعة من الأمثلة، نذكر بعضها.

قال خالد بن الوليد لأهل الحيرة: أخرجوا إلي رجلا من عقلائكم أسأله بعض الأمور، فأخرجوا إليه عبد المسيح بن عمرو بن قيس بن حيان بن ببيعة الغساني، وهو الذي بنى القصر، وهو يومئذ ابن خمسين و ثلاثمائة سنة، فقال له خالد: من أين أترك؟ قال: من صلب أبي، قال: فمن أين خرجت؟ قال: من بطن أمي، قال: فعلام أنت؟ قال: على الأرض، قال: ففيم أنت؟ قال: في ثيابي، قال: ما سنك؟ قال: عظم، قال: أتعقل لا عقلت؟ قال: إي والله وأقيد، قال: ابن كم أنت؟ قال: ابن رجل واحد، قال: كم أتى عليك من الدهر؟ فقال: لو أتى علي شيء لقتلني، قال: ما تزيدني مسألتك إلا غمي؟ قال: ما أجبتك إلا عن مسألتك.⁷¹

- و قال الحجاج لرجل من الخوارج: أجمعت القرآن؟ قال: أ متفرقا فأجمعه؟ قال: أتقرؤه ظاهرا؟ قال: بل أقرأه و أنا أنظر إليه، قال: أتخفظه؟ قال: أخشيت فراره فأخفظه؟⁷²

و قد كانت هذه الأمثلة التي قدمها الجاحظ في هذا الباب منطلقا للبلاغيين للونين من ألوان البديع هما اللغز و الأسلوب الحكيم، يقول عبد العزيز عتيق: "و ما من شك في أن ما قدمه الجاحظ من أمثلة شتى في هذا الباب قد لفت أنظار البلاغيين من بعده لهذا النوع من الكلام، و أعطاهم الأساس للونين من ألوان البديع هما اللغز و أسلوب الحكيم"⁷³.

و هكذا فإن الجاحظ لم يضع مصطلح "أسلوب الحكيم".

⁷¹- أبو عثمان بن بحر الجاحظ- "البيان و لتبيين"- تحقيق عبد السلام محمد هارون- مكتبة الخانجي ط-6-1998-147/2.

⁷²- نفسه -الصفحة نفسها.

⁷³- عبد العزيز عتيق- "تاريخ البلاغة العربية"- دار النهضة العربية- بيروت- لبنان-ص:122.

و قد سمي عبد القاهر الجرجاني (471هـ) هذا الأسلوب "مغالطة" و لم يهتم به لذاته أي بدراسته كفن، إنما ذكر هذه التسمية في معرض حديثه عن التقديم و التأخير في ذكره لأدوات لازمة للتقدير و هي "غير"، "مثل"، و سبب عدم عنايته به هو كونه يهتم بالشكل أكثر من المضمون يقول: « و مما يرى تقديم الاسم فيه كاللازم "مثل" و "غير" في نحو قوله:

مِثْلَكَ يُثْنِي الْمَرْءُ عَنِ صُوبِهِ * وَ يَسْتَرِدُّ الدَّمْعَ عَنِ تَحْرِيبِهِ**

و قول الناس: مثلك رعى الحق و الحرمة، و كقول الذي قال له الحجاج: لأحملنك على الأدهم، يريد القيد، فقال على سبيل المغالطة: و مثل الأمير يحمل على الأدهم و الأشهب، و ما أشبه ذلك مما لا يقصد فيه بمثل إلى إنسان سوى الذي أضيف إليه، و لكنهم يعنون أن كل من كان مثله في الحال و الصفة كان من مقتضى القياس

و موجب العرف و العادة أن يفعل ما ذكر أو أن لا يفعل»⁷⁴.

و لعل تسميته هذا الفن مغالطة هو كونه لم يقم على المكاشفة و المواجهة الصريحة، بل قام على الاخفاء و اللطف و الطرافة مراعاة للأدب و تقديرا للمشاعر⁷⁵.

أما الفخر الرازي (601هـ) فعندما عالج مسألة التقديم و التأخير في "مثل" و "غير" ذكر المثال المشهور للقبعثري، و الذي سماه عبد القاهر مغالطة، و لكن لم يسمه باسمه و جعله من الأسلوب الكنائى ففي حديثه يرى "أن الأسلوب الكنائى أبلغ من الأسلوب الصريح، كأن يقال: "أنت تثني الحزن عن صوبه"،

⁷⁴ - عبد القاهر الجرجاني- "دلائل الإعجاز" تحقيق محمد شاكر - مطبعة المدني-مصر - ط3-1992-ص:138-

139.

⁷⁵ - بسيوني عبد الفتاح فيود- "من بلاغة النظم القرآني" -ص:163.

"الأمير يحمل على الأدهم

و الأشهب"، لأن الأسلوب الكنائي كدعوى الشيء بنية و دليل "76.

و نجد ابن الأثير (638هـ) يذكر أحد الأمثلة التي ذكرها الجاحظ في باب

اللغز في الجواب عند ثقيقه بين التفسير و التأويل، فالتأويل عنده على ثلاثة

أقسام، يجعل القسم الثالث منه: ما يفهم من المعنى غيره و لكن لا يكون ضدا، و

فيه يدرج الحوار الذي جرى بين خالد بن الوليد و عبد المسيح بن بقيقة⁷⁷.

أما "أسلوب الحكيم" فهي تسمية من عند السكاكي (626هـ) فهو زيادة

على تقعيده لعلوم البلاغة و تصنيفه لها و تقسيمه إياها إلى علوم ثلاثة له

اجتهادات عدة منها استنباطه لهذا الفن، و إطلاقه عليه هذه التسمية "فهو اشتهر

في تاريخ الثقافة العربية بقراءته الخاصة للبلاغة العربية، تلك التي صنعت مباحثها

إلى معان و بيان و بديع"⁷⁸.

و حديثه عن هذا الفن كان في آخر القسم الذي خصصه لعلم المعاني،

فالسكاكي وضع "أسلوب الحكيم" ضمن مباحث علم المعاني على عكس أغلب

البلاغيين الذين كانوا من بعده⁷⁹.

(5)- موقعه في البحث البلاغي:

يختلف البلاغيون في تصنيف فن أسلوب الحكيم، فهناك من عاجله ضمن

علم المعاني، و هناك من أدرجه ضمن علم البديع. فالسكاكي كما رأينا سابقا

عندما قعد لعلوم البلاغة جعله في آخر حديثه عن علم المعاني، و تبعه بعد ذلك

الخطيب القزويني حيث ذكره عند حديثه عن أحوال المسند إليه، أما عبد القاهر

الجرجاني فسماه مغالطة، و لم نعلم إلى أي قسم كان يعتبره، غير أن أغلب

⁷⁶- أحمد جمال العمري-"المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز القرآني"-ص312.

⁷⁷- محمد العمري-"البلاغة العربية أصولها و امتداداتها أفريقيا الشرق لبنان 1999 ص 179

⁷⁸- السكاكي-"مفتاح العلوم"-ص140.

⁷⁹- محمد العمري-"البلاغة العربية أصولها و امتداداتها"-ص140.

البلاغيين بعد القزويني اعتبروه محسنا بديعيا، و كأنهم لم يرضوا بتصنيف السكاكي.

و لعل عدم توافق البلاغيين في تصنيفه راجع إلى كون المباحث البلاغية، أساسا متشابكة و متداخلة، فكلمة بديع كانت تعني الشيء الطريف أو الجديد عند ابن المعتز، ثم قام السكاكي بتخصيص هذه الكلمة، و أصبح مقصورا على وجوه تحسين الكلام⁸⁰، و كان لهذا التخصيص جنايته على مسار الدرس البلاغي، فقد عزل الظواهر الأسلوبية بعضها عن بعض، و أصبح دور "علم البديع" بمقتضاه دورا هامشيا أشبه بالتلوين الخارجي الذي لا تأثير له على جوهر المعنى⁸¹.

فالمباحث البلاغية التي تضمنتها العلوم الثلاثة يمكن رؤيتها بأكثر من وجه، فبعض العبارات مثلا تعالج في موضوع الاستعارة، و في الوقت نفسه تمثل لونا من ألوان "البديع"

و هكذا. و استخدام كلمة "المعاني" اسما لأحد علومها ينطوي على كثير من اللبس

و الإيهام، و لم يظهر هذا الاسم إلا على يد السكاكي و مدرسته، و لم يعرف هذا المصطلح عند المتقدمين على العكس من كلمتي "البيان" و "البديع" اللتين عرفتا من قبل، و أطلقنا بمعنى واحد أو معنيين متقاربين، و مع ذلك فإن ما أنيط بهذا العلم من وظيفة

و هي الاحتراز عن الخطأ في تأدية المعنى المراد ليس صحيحا على وجه الإطلاق، فالأمر في أكثر الأحيان أمر اختيار بين بدائل كلها صحيح لغويا، إلا أن بعضها

⁸⁰ - شفيح السيد- "البحث البلاغي عند العرب تأصيل و تقييم"- ص273.

⁸¹ - نفسه- الصفحة نفسها.

يتميز من بعض من حيث الإيحاء بخلجات المعاني، و دقائقها الخفية، و ليس في الأمر عدول عن الخطأ إلى صواب⁸².

و التباس أسلوب الحكيم في تصنيفه ما بين علم المعاني و علم البديع يؤكد أهمية علم البديع، و أنه من صميم البلاغة، قال إبراهيم موسى: "بحسبك أن تعلم أن الخطيب القزويني عد هذا الأسلوب ضمن أساليب تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر لتؤمن بأنه من البلاغة في الصميم باعتراف من عاد فحكم عليه بأنه ذيل و ذنب و حلية و عرض"⁸³.

(6)-تداخله مع فن القول بالموجب:

يعرف أسلوب الحكيم تداخلا كبيرا مع فنون بلاغية أخرى خاصة "فن القول بالموجب"، فهو مخلوط به في كتب البلاغة العربية.

فمثلا نجد أحمد إبراهيم موسى يذكر أسلوب فن القول بالموجب، و فيه يقول أن القزويني عده من أساليب تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر⁸⁴. و الظاهر أنه كان يقصد به أسلوب الحكيم، لأن القزويني لم يعد فن القول بالموجب من أساليب تخريج الكلام على خلاف مقتضى الظاهر، و إنما اعتبره من علم البديع⁸⁵.

أما عبد العزيز قليقلة فيعد أحد أقسام أسلوب الحكيم من القول بالموجب، ففي تعريفه لأسلوب الحكيم يقول: "هو تلقي المخاطب بغير ما يترقب بترك الإجابة عن سؤاله، و الإجابة عن سؤال آخر لم يسأله لفتا له إلى أنه كان ينبغي أن يسأل الثاني لا الأول، من أمثلة: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِبَتُهُ لِلنَّاسِ وَ

الْعَمَلِ﴾⁸⁶.

⁸²- المصدر السابق-ص179.

⁸³- أحمد إبراهيم موسى-"الصبغ البديعي في اللغة العربية"- دار الكتاب العربي-الفاخرة-1969-ص491.

⁸⁴- نفسه-ص413.

⁸⁵- القزويني-"الإيضاح في علوم البلاغة"-ص84.

⁸⁶- عبد العزيز قليقلة-"البلاغة الاصطلاحية"- دار الفكر العربي-ط2-1992-ص323.

و عند حديثه عن فن القول بالموجب يقول: « و أبادر فأقرر أنه في كتب البلاغة مخلوط بأسلوب الحكيم، و أن أسلوب الحكيم مخلوط به تحت اسم القول بالموجب »⁸⁷.

فالقول بالموجب عنده قسمان⁸⁸ أحدهما أن تدل صفة في كلام لغيرك على شيء مثبت له حكم تقتضيه تلك الصفة لغير الشيء الأول دون تعرض لثبوت ذلك الحكم له أو انتفائه عنه. و الآخر: حمل لفظ وقع في كلام الغير على خلاف مراده مما يحتمله بذكر متعلقه.

نلاحظ أنه جعل أحد أقسام أسلوب الحكيم ضمن القول بالموجب. أما صفي الدين الحلبي فيعرف فن القول بالموجب بأنه: "حمل لفظ وقع من كلام الغير على خلاف مراده، ما يحتمله بذكر متعلقه"⁸⁹.

نلاحظ عدم وجود اختلاف كبير بين مفهوم أسلوب الحكيم و مفهوم القول بالموجب، هذا ما أدى إلى التباسهما، فأسلوب القول بالموجب نوع أخص من أسلوب الحكيم ذلك أن كليهما يعتمد على حمل كلام الغير على غير ما يقصد إلا أن أسلوب فن القول بالموجب يرتكز على كلمة في السياق و يبني عليها رده.

أما عبد العزيز عتيق فيجعل كل من أسلوب الحكيم و فن القول بالموجب شيئاً واحداً، فهو يدمج القسم الأول من القول بالموجب، مع القسم الأول من أسلوب الحكيم، و القسم الثاني من القول بالموجب، مع القسم الثاني من أسلوب الحكيم⁹⁰.

⁸⁷- المصدر السابق- ص323.

⁸⁸- نفسه- الصفحة نفسها.

⁸⁹- صفي الدين الحلبي- "شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة و محاسن البديع"- تحقيق نسيب نشاوي- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- ص96.

⁹⁰- عبد العزيز عتيق- "علم البديع"- ص184/185.

من هنا كان أسلوب الحكيم أكثر ما يتداخل مع فن القول بالموجب، و
نجده أيضا يتداخل نوعا ما مع المغالطات المعنوية، و لعل لهذا السبب سماه الشيخ
عبد القاهر مغالطة، و مفهوم المغالطة هو « أن يذكر معنى من المعاني له مثل في
شيء آخر و نقيض النقيض أحسن موقعا، و ألطف مأخذا »⁹¹.

و من أمثله ما يروى في الأخبار الواردة في غزاة بدر أن النبي -صلى الله
عليه

و سلم- كان سائرا بأصحابه يقصد بدرا، فلقاهم رجل من العرب، فقال ممن
القوم؟ فقال النبي -صلى الله عليه و سلم-: من ماء، فأخذ ذلك الرجل يفكر و
يقول: من ماء، من ماء، لينظر أي بطون العرب يقال لها ماء، فسار النبي -صلى
الله عليه و سلم- لوجهته، و كان قصد أن يكتم أمره⁹².

فهذا المثال يمكن إدراجه تحت فن أسلوب الحكيم لأن السائل قصد أي
بطون العرب هم القوم، و النبي -صلى الله عليه و سلم- قصد من أي شيء خلق
القوم، فهنا كانت إجابة الرسول -صلى الله عليه و سلم- السائل بما لم يطلب.
و هناك تداخل آخر بينه و بين اللغز في الكلام.

و هذا « و إن دل على شيء فإنما يدل على فوضى البديع بعامة، و فوضى
المحسنات المعنوية منه بخاصة، و لا غرابة في ذلك فبعض هذه المحسنات متداخل،
و الأكثر متمحل »⁹³.

(7) - أهميته:

لأسلوب الحكيم أهميته كبيرة، و في استعماله فوائد جمّة منها:

أ- مراعاة الحالة النفسية:

⁹¹- ابن الأثير- "المثل السائر"- 203/1.

⁹²- المصدر السابق- 206/1..

⁹³- عبد العزيز قليقة- "البلاغة الاصطلاحية"- ص325.

إن موضوع البلاغة يعرف بالرجوع إلى أهم خواصها، و هي مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فأبحاث علم البلاغة يدور حول هذه المسألة، و بيان ما يناسب لأن ما يحسن في خطاب جماعة أو في حال ما، قد لا يحسن مع جماعة أو في حال أخرى، و ما قد يصلح لغرض علمي من الأساليب لا يصلح لغرض أدبي، فالمسألة هي بيان الأنسب، لذلك يعترضنا هذان السؤالان: ماذا نقول؟ و كيف نقول؟⁹⁴.

و نجد أسلوب الحكيم يجسد هذه الفكرة أي -ماذا نقول؟ و كيف نقول؟- فالتكلم باستعماله هذا الأسلوب يراعي حالة السائل، فيجيب السائل بما لم يتطلب إذا كانت الإجابة الحقيقية مثلا تزعجه أو أنه لا يمكنه استيعابها. إذن هذا الأسلوب من الأساليب التي تجسد جوهر البلاغة في إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ، و هذا المفهوم تفتن إليه الرماني فقال: « إنما البلاغة إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ »⁹⁵. فهذا تعريف ظريف للبلاغة نلمس فيه روحا جديدا في فهم منزلة البلاغة، و دورها في التعبير، أحدهما: متعلق بالأثر النفسي للبلاغة، و الثاني: متعلق بالأسلوب أو الصورة البيانية⁹⁶.

فأسلوب الحكيم خير نموذج لمراعاة مقتضى الحال، فهو يتخذ مسار يوافق الاستعداد النفسي و الفطري لدى المتلقي.

ب- طريق للمجادلة الحسنة:

و من ناحية أخرى هو طريق للمجادلة الحسنة، و المجادلة الحسنة هي أن تناقش الخصم بحجة واضحة صحيحة من غير تعنيف و تشديد، و أن تكسوها

⁹⁴- أحمد الشايب-"الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية"- مكتبة النهضة-مصر-1966-ص36.

⁹⁵- الرماني-"النكت في إعجاز القرآن"- ضمن "ثلاث رسائل في الإعجاز"- تحقيق محمد خلف الله- محمد زغلول سلام- دار المعارف- مصر- ص69.

⁹⁶- أحمد جمال العمري-"المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز"- ص44.

عبارة لها مفعول في نفسه و قلبه، فإذا أدلى بحجة سمعتها منه غير مستحق به، و لا متضجر منه، و يجب أن يكون هدفك الوحيد - و أنت تجادل و تخاصم - إزاحة الشبهات، و إنارة الطريق إلى الحق و هذه الطريقة تستعمل مع المعاندين العقلاء، فتدفع بها جيشاتهم و صولاتهم⁹⁷.

و قد أمر الله عز و جل رسوله الكريم بالجدال الحسن، فكان عليه الصلاة و السلام يفهم غرضه و قصده دون تعنيف و خصام سواء تحدث مع المسلمين أو مع الكفار و المعاندين، و من أمثلة أسلوب الحكيم في هذا، قوله عز و جل: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾⁹⁸. ﴿وَ ضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ. قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾⁹⁹.

ج- فتح المجال للتفكير:

يفتح استعمال هذا الأسلوب مجالاً للتفكير و التطلع، فالعدول عن الإجابة المشاكلة للسؤال تجعل السائل يبحث في السبب الذي أدى بالمتكلم إلى عدم الإجابة الحقيقية، و من أمثلة هذا قوله عز و جل: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِبَتُهُ لِلنَّاسِ وَ الْحَجْمُ﴾¹⁰⁰، فالقارئ لهذه الآية يدرك أن وراء الأهله أمر عظيم.

د- طريق للإيجاز:

يمكنك باستعمال هذا الأسلوب تجنب الخوض في موضوع لا يروقك، و بالتالي تصرف مخاطبك بشيء من اللياقة و الأدب عن غرضه.

⁹⁷- محمد الصالح الصديق- "مقاصد القرآن" - دار البعث- قسنطينة- الجزائر ط-2-1982- ص167.

⁹⁸- سورة طه- الآيتين 49-50.

⁹⁹- سورة يس- الآيتين 78-79.

¹⁰⁰- سورة البقرة- الآية 189.

II- علاقة أسلوب الحكيم بمفاهيم الأسلوب:

لقد أصبحت أغلب الفنون البلاغية تدرس في ضوء علم الأسلوب، و هذا راجع إلى العلاقة الوطيدة التي تجمع بين علم الأسلوب و البلاغة، و تعتبر الفنون البلاغية ذات التغيرات الشكلية (الاستعارة-الالتفات...) أكثر الفنون دراسة في علم الأسلوب، أما أسلوب الحكيم، و هو موضوع بحثنا فما يميزه من تغيرات يخص جانب المعنى أكثر منه جانب الشكل، و لكن مع هذا سنرى مدى توافق خصائصه الفنية مع خصائص الأسلوب، خاصة و أن تسميته تحوي كلمة أسلوب، و هي ضرورية فيه و لا غنى عنها*.

1- علاقة البلاغة بالأسلوب:

ثمة علاقة وثيقة بين البلاغة و الأسلوب، فالأسلوب محور أساسي تهتم به البلاغة، « إن البلاغة تعنى أكثر ما تعنى بالأسلوب، فهي كذلك تفرض أن الكاتب لديه ما يود أن يقوله أو يكتبه من المعاني و الأفكار أيا كانت قيمتها أو درجتها من السمو أو الصنعة، ثم ترسم له خطة الأداء قولاً أو كتابة »¹⁰¹.

كما أن موضوع البلاغة ينحصر في باين أو كتابين هما: الأسلوب و الفنون الأدبية¹⁰²:

أ- الأسلوب: و في هذا القسم من علم البلاغة، تدرس القواعد التي إذا اتبعت كان التعبير بليغاً أو واضحاً مؤثراً، فتدرس الكلمة و الصورة و الجملة و

*- كثيراً ما نضيف كلمة أسلوب إلى عديد من الفنون البلاغية فنقول أسلوب الالتفات، أسلوب القصر، أسلوب الاستفهام- كما أننا أحياناً نستغني عنها، لأن مصطلح أي فن بلاغي قائم في حد ذاته و يحمل معناه الكامل، أما فن أسلوب الحكيم، فكلمة أسلوب فيه ضرورة و يفصلها بتغير المعنى.

¹⁰¹- أحمد الشايب- "الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية"- ص15.

¹⁰²- نفسه- ص37.

الفقرة و العبارة،

و الأسلوب من حيث أنواعه و عناصره و صفاته...

ب- الفنون الأدبية: و تدرس مادة الكلام من حيث اختيارها و تقسيمها

و ما يلائم كل فن من الفنون الأدبية كالقصة و المقالة و الوصف.

- يهدف كل من الأسلوب و البلاغة إلى إيصال المعنى بأوضح السبل و

أجلها "فاللغة بناء مفروض على الأديب من الخارج، و الأسلوب مجموعة من
الإمكانيات تحققها اللغة، و يستغل أكبر قدر ممكن منها الكاتب الناجح، أو

صانع الجمال الماهر الذي لا يهمله تأدية المعنى و حسب، بل ينبغي إيصال المعنى

بأوضح السبل و انعدم معه الأسلوب، و تنظر علوم البلاغة و الفصاحة و البيان و

البديع و المعاني في كيفية التلاعب فنيا بإمكانيات اللغة"¹⁰³.

هذا و إذا انتقلنا إلى الأسلوبية فإننا نجدها تلتقي كثيرا مع البلاغة فكلاهما

يبحثان في الحدث الجمالي، و لم يظهر مصطلح الأسلوبية إلا في بداية القرن

العشرين مع ظهور الدراسات اللغوية الحديثة التي قررت أن تتخذ من الأسلوب

"علما" يدرس لذاته،

أو يوظف في خدمة التحليل الأدبي أو التحليل النفسي، أو التحليل الاجتماعي

تبعاً لاتجاه هذه المدرسة أو تلك"¹⁰⁴.

فميدان هذا العلم الناشئ في أحضان علم اللغة الحديث يتداخل تداخلاً بينا

مع ميدان علم البلاغة العربية، و هو تداخل لا يرتد إلى علاقة تأثير و تأثير بين

العلمين بل على تلاقيهما من حيث التوجه أو الغاية، إذ إن وظيفة كليهما هو

التقاط التنوعات

¹⁰³- ريمون طحان-"الألسنية العربية"-دار الكتاب اللبناني-لبنان-ط2-1981-ص116/117.

¹⁰⁴- أحمد درويش-"دراسة الأسلوب بين المعاصرة و التراث"- دار غريب-القاهرة-ص18/19.

أو التحولات التعبيرية في لغة الأدب للكشف عن شحناتها التأثيرية أو
الدلالية¹⁰⁵.

كما أن علمي الأسلوب و البلاغة يعرفان تطورا كبيرا، و أصبحت البلاغة
تستقطب نتائج علم الأسلوب، يقول صلاح فضل: "إذا تأملنا العلاقة بين علمي
الأسلوب و البلاغة الجديدة، و جدنا أنها تقوم على أساس أن الأسلوب دراسة
للإبداع الفردي،

و تصنيف للظواهر الناجمة عنه، و تتبع الملامح المنبثقة منه، حتى إذا بلغت عملية
التصنيف درجة محددة من التجريد، يسمح برصد أشكال التعبير و قوانينه العامة
المستخلصة من البحوث التجريبية، و المتوافقة أو المتخالفة مع ما استقر في الوعي
النقدي من معطيات أمكن عندئذ الدخول في دائرة البلاغة العلمية، إذ تستقطب
-بدورها- خلاصة النتائج الأسلوبية، و تتلمس أسس الاتساق و الانتظام المعرفي
و التقني فيها إذ تبني نظرياتها بالمفهوم العلمي لمصطلح النظرية باحثة عن آليات
تماسكها و طرق قيامها بوظائفها، كما تحل المشكلات الناجمة عن تماش بعض
نتائجها أو تناقضها في الظاهر، بحثا عن الأبنية العميقة التي تلمس تحتها، بما يسفر
عن اكتشاف الفلسفة التي تحكم حركتها"¹⁰⁶.

(2)- الأسلوب عند البلاغيين:

اهتم البلاغيون منذ القدم بدراسة الأسلوب، و كانت معجزة القرآن
الكريم أهم حافز لهم في دراستهم له، ذلك أنهم أدركوا أن إعجازه يخص الجانب
البلاغي أكثر من أي جانب آخر، من ثم بحثوا في أي النواحي البلاغية هو أكثر
إعجازا، فحاموا حول فكرة النظم التي ترتبط أساسا بالأسلوب.

¹⁰⁵ - حسن طبل- "أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية"-دار الفكر العربي-القاهرة-1998- ص33.

¹⁰⁶ - صلاح فضل- "بلاغة الخطاب و علم النص"-مكتبة لبنان-1996- ص231.

فالجاحظ (255هـ) مثلاً يناقش طريقة الاختيار المثلى لبعض الألفاظ على بعضها الآخر، و كيف أن المعجم القرآني بلغ في تلك درجة دقيقة في التفريق بين الألفاظ، فنجده عز و جل لا يذكر المطر إلا في موضع الانتقام، و لم يذكر الجوع إلا في موضع العقاب أو موضع الفقر و العجز الظاهر¹⁰⁷.

و يتحدث الباقلاني (384هـ) عن حسن وضع الألفاظ في أماكنها المناسبة و يجعل ذلك من عمود البلاغة، فيقول: "ثم اعلم أن عمود هذه البلاغة التي تجمع لها هذه الصفات هو وضع كل نوع من الألفاظ التي تشتمل عليها فصول الكلام موضعه الأخص الأشكل به، الذي إذا أبدل مكانه غيره جاء منه إما تبدل المعنى الذي يكون منه فساد الكلام، و إما ذهاب الرونق الذي يكون معه سقوط البلاغة"¹⁰⁸.

كما أنه يجعل سر تفوق القرآن على سائر الكلام هو كون الله عز و جل محيط بجميع الألفاظ و المعاني، و جميع نظم التأليف، و منه اختار اللفظ المناسب للمعنى المناسب و كذا النظم المناسب¹⁰⁹.

و للرماني (386هـ) حديث عن حسن العبارة، و أثرها في السمع يقول: "و حسن البيان في الكلام على مراتب، فأعلاها مرتبة ما أجمع أسباب الحسن في العبارة من تعديل النظم، حتى يحسن في السمع و يسهل على اللسان و تتقبله النفس تقبل البرد"¹¹⁰.

كما أنه يجعل سر إعجاز القرآن في دلالة تأليفه الغير متناهية يقول: « و دلالة الأسماء و الصفات متناهية، أما دلالة التأليف فليس لها نهاية، و لهذا صح التحدي فيها بالمعارضة لتظهر المعجزة »¹¹¹.

¹⁰⁷ - الجاحظ- "البيان و التبيين" - 20/1.

¹⁰⁸ - أبو سليمان بن محمد بن ابراهيم الخطابي- "بيان إعجاز القرآن"- ضمن ثلاث رسائل في إعجاز القرآن- ص26.

¹⁰⁹ - نفسه- ص24.

¹¹⁰ - الرماني- "النكت في إعجاز القرآن"- ص98.

¹¹¹ - نفسه- ص99.

أما عبد القاهر الجرجاني (471هـ) فدراسة الأسلوب عنده اقترنت بنظريته حول النظم، و النظم عنده معناه ضم الكلمات بعضها إلى بعض و ترتيبها حسب ترتيب المعاني في النفس، فالناظم يعمل فكره في ترتيب المعاني في نفسه، فإذا فرغ من ذلك سهل عليه ترتيب الكلمات، و نلمس مفهوم النظم عنده عندما يفرق بين حروف منظومة

و كلم منظومة، إذ يقول: «و ذلك أن "نظم الحروف" هو تواليها في النطق، و ليس نظمها بمقتضى عن معنى، و لا الناظم لها بمقتضى في ذلك رسماً من العقل... أما "نظم الكلم" فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني، و ترتيبها على حسب ترتب المعاني في النفس، فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، و ليس هو "النظم" الذي معناه ضم الشيء إلى الشيء كيف جاء و اتفق»¹¹².

فهؤلاء البلاغيون حاولوا تفسير إعجاز القرآن الكريم و سر تفوقه، فارتبطت دراستهم بدراسة أسلوبه مباشرة.

فالنظم الذي كان يريد الباقلاني الإشارة إليه، و عجز عن تحديده هو الملامح الخاصة للأسلوب، و طريقة بنائه و تركيبه، و سر جمال وضع كلمة معينة في مكان معين...¹¹³.

و كان هدف عبد القاهر الجرجاني وضع تفسير علمي لمعنى إحكام الأسلوب و قوة بنائه¹¹⁴.

و نلمس مفهوم الأسلوب عند ابن الأثير (638هـ) حين يتحدث عن الصناعة اللفظية، فهو يشبه اقتران الكلمات مع بعضها باقتران الالآئ مع بعضها،

¹¹² - عبد القاهر الجرجاني- "دلائل الإعجاز" - ص49.

¹¹³ - أحمد درويش- "الأسلوب دراسة بين المعاصرة و التراث" - ص94.

¹¹⁴ - المصدر السابق- ص108.

يقول: « لم أنه يحتاج صاحب هذه الصناعة في تأليفه إلى ثلاثة أشياء: الأول منها: اختيار الألفاظ المفردة، و حكم ذلك اللآلئ المبددة، فإنها تتخير و تنتقى قبل النظم، الثاني نظم كل كلمة مع أختها المشاكلة لها لئلا يجيء الكلام قلقا نافرا عن مواضعه، و حكم ذلك حكم العقد المنظوم في اقتران كل لؤلؤة منها بأختها المشاكلة لها، الثالث: الغرض المقصود من ذلك الكلام على اختلاف أنواعه، و حكم ذلك حكم الموضوع الذي يوضع فيه العقد المنظوم »¹¹⁵ و الكلام حول نظرية النظم و تطورها و تبلورها يطول، كما أن جل البلاغيين تناولوا الأسلوب بالدراسة، خاصة و أنهم ربطوه بالإعجاز القرآني، اقتصرنا على بعضهم لنعطي نظرة عامة حوله.

3- الأسلوب عند الأسلوبيين:

يغطي الأسلوب دائرة واسعة من حيث معناه اللغوي العام، فيمكن أن يطلق على¹¹⁶:

1- النظام و القواعد العامة، حين نتحدث مثلا عن أسلوب المعيشة لدى شعب ما.

2- يمكن أن يعني الأسلوب الخصائص الفردية التي تميز شيئا عما سواه، كأسلوب "كاتب" معين أو أسلوب موسيقي خاص.

أما الأسلوب بمعناه الحديث، و الذي تهتم به الأسلوبية فمفهومه يرتكز في أغلب الأحيان على ثلاث عناصر هي: الاختيار- الانحراف- التلقي، و هذه العناصر ناتجة عن ثلاثية التوصيل (المرسل- الرسالة- المتلقي).

أ- الاختيار:

¹¹⁵- ابن الأثير "المثل السائر"-1/149.

¹¹⁶- أحمد درويش- "الأسلوب دراسة بين المعاصرة و التراث"-ص20.

فالأسلوب من هذا المنظور هو انتقاء يقوم به المنشئ لسلمات لغوية معينة بغرض التعبير عن موقف معين، و يدل هذا الاختيار أو الانتقاء على إثارة المنشئ و تفضيله لهذه السمات على سمات أخرى بديلة، و مجموعة الاختيارات الخاصة بالمنشئ معين هي التي تشكل أسلوبه الذي يمتاز به عن غيره من المنشئين¹¹⁷.

و كون الأسلوب عند هؤلاء الباحثين اختيار لا يعني أن كل اختيار يقوم به المنشئ لابد أن يكون أسلوبيا، فهناك اختيار محكوم بسياق المقام، و اختيار تتحكم فيه مقتضيات التعبير الخالصة، فأما النوع الأول فهو انتقاء نفعي مقامي ربما يؤثر فيه المنشئ كلمة أو عبارة على أخرى لأنها أكثر مطابقة في رأيه للحقيقة، أو لأنه على عكس ذلك يريد أن يضل سامعه أو يتفادى الاصطدام بحساسيته تجاه عبارة أو كلمة معينة، و أما النوع الثاني فهو انتقاء نحوي، و المقصود بالنحو في هذا المصطلح قواعد اللغة بمفهومها الشامل الصوتية و الصرفية و الدلالية و نظم الجملة، و يكون هذا الانتقاء حين يؤثر المنشئ كلمة على كلمة، أو تركيبا على تركيب لأنها أصح عربية، أو أدق في توصيل ما يريد¹¹⁸.

فهو إذن نتيجة اختيار بين الإمكانيات التي تتيحها اللغة للمتكلم سواء كان هذا الاختيار في نطاق المعجم (كما في إثارة لفظة دون أخرى موافقة لها)، أو في نظام النحو (كما في إثارة صورة من صور تركيب العبارة دون أخرى تعادها في أصل معناها).¹¹⁹

كما أنه ينبع من ذاتية الفنان أو الكاتب (نظرية بوفون)، فمع أن اللغة تشترك فيها مجموعة بشرية معينة، فإن استعمالها يتنوع بحسب الأفراد الذين

¹¹⁷ - سعد مصلوح- "الأسلوب دراسة لغوية إحصائية"- عالم الكتب- القاهرة- ط3-1992-ص37.

¹¹⁸ - نفسه- ص16.

¹¹⁹ - حسن طبل- "أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية"- ص35.

ينتفعون بها حتى أنه يقال: إن لكل امرئ لغته، بمعنى أنه ينفرد في أسلوبه عن المجموعة التي ينتمي إليها.¹²⁰

ب- الانحراف:

أما العنصر الثاني أو المنظور الثاني للأسلوب فهو الانحراف، و يقصد بالانحراف تحول النص من نمط معين إلى آخر، أو انحراف عن قاعدة ما، و يقوم الأسلوبيون بمقارنة الخصائص و السمات اللغوية في النص النمط، و بين ما يقابلها من خصائص و سمات في النص المفارق.¹²¹

من هنا كانت هذه المقارنة تركز على نمط معين، غير أنه يمكن الاستغناء عنه إذا كان للدارس ذو خبرة و مهارة: « ليس من الضروري أن يكون النمط المعياري الذي نقيس إليه عبارة عن نص متعين، ففي كثير من الأحيان - وهو الغالب على النقد القديم - تعتمد المقارنة على خبرة الدارس - و تمرسه بالنصوص مما يشكل لديه ملامح النمط المعياري المقابل، و إن لم يتخذ شكل نص متعين ». ¹²²

و يحدث الانحراف نتيجة كون الشاعر أو الأديب في صراع متحدد مع لغته، إذ هو يحس دائما بأن اللغة العربية في صورتها النمطية عاجزة عن تلبية حاجته الملحة إلى نقل كوامن شعوره بتلك اللغة فينحرف عن مسارها.¹²³

و حدوث انحراف في الكلام يكون بحسب ما يقتضيه الحال، فهناك أحوال نكتفي بالأصل أي بدلالات وضعية، و ألفاظ كيفما كانت، و نظم لها لمجرد التأليف بينها،

و هناك أحوال تحتاج إلى مزيد من ذلك ما يدخل في باب واسع سمي بخروج

¹²⁰ - ريمون طحان- "الألسنة العربية"- ص116.

¹²¹ - سعد مصلوح- "الأسلوب دراسة لغوية إحصائية"- ص43.

¹²² - نفسه ص43.

¹²³ - حسن طبل- "أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية"- ص45.

الكلام عن مقتضى الظاهر، أو عن مقتضى ظاهر اللفظ، و هو المستوى البلاغي المدروس في مباحث الإنشاء و الخبر¹²⁴.

ج- التلقي:

لقد أولى فريق من رواد الدراسة الأسلوبية اهتماما أكبر إلى ما يتولد عن الرسالة

(أو النص)، من ردود فعل لدى المتلقي، فبروز بعض عناصر السلسلة الكلامية، تحمل القارئ على الانتباه إليها.¹²⁵

إذ يرى بعض الأسلوبيين وجود ارتباط جوهري بين الأشكال

البلاغية،

و عملية التلقي: « لتعبير يصبح شكلا بلاغيا عندما نستطيع تلقيه باعتباره كذلك،

و هذا في صميمه عملية اجتماعية، و معنى هذا بوضوح أن فكرة الشكل البلاغي

ليست منبثقة من المستوى اللغوي الصرفي بل إنها تكتسب كامل معناها في

مستوى التلقي اللغوي، فيصبح القول متشكلا بلاغيا في اللحظة التي تتلقاه فيها

باعتباره كذلك»¹²⁶

(4)- مدى توافق أسلوب الحكيم مع هذه المفاهيم:

لقد عرضنا فيما سبق مختلف مفاهيم الأسلوب سواء في المعاجم أو عند

البلاغيين

أو عند الأسلوبيين، و الآن نحاول أن نستشف العلاقة بين أسلوب الحكيم كفن و

بين مفاهيم الأسلوب المختلفة، و نرى إلى أي المفاهيم هو أقرب.

¹²⁴- محمد العمري-"البلاغة العربية أصولها و امتدادها"- ص493.

¹²⁵- سعد مصلوح-"الأسلوب دراسة لغوية إحصائية"- ص42.

¹²⁶- صلاح فضل-"بلاغة الخطاب و علم النص"- ص184.

يبدو أن كلمة أسلوب في أسلوب الحكيم تنطبق مع مفهوم الأسلوب
بصفة عامة في المعاجم.

ففي المعاجم كما رأينا الأسلوب هو الفن و المذهب و الطريقة من هنا
كان مناسبا أن نلحق كلمة أسلوب بالحكيم، إذا اعتبرنا الأسلوب طريقة فيكون
معنى هذا الفن البلاغي طريقة مخصوصة من الكلام يتصف بها إنسان بليغ، و قد
رأينا أيضا في المعنى اللغوي العام للأسلوب أنه يطلق على الخصائص الفردية التي
تميز شيئا عما سواه، و هذا الفن بطبيعة الحال له خصائص تميزه عن غيره من
الفنون.

فالمصطلح من هذا المنظور هو عام و هو المعنى الأقرب إلى ذهن أي واحد
من الناس، مع ذلك فإنه يفتح لمن يسمع هذا المصطلح أن يبحث أو يفكر في
معرفته، فهو حتما سيحاول معرفة طريقة البليغ في الكلام، من هنا سيعرف حتما
حقيقته بكونه فنا بلاغيا. و كون معنى هذا المصطلح طريقة مخصوصة من الكلام
يوشي بوجود خصائص

و مميزات تجعله يعرف و يدرك من قبل القارئ.

هذه الخصائص سنقارنها مع خصائص الأسلوب عند الأسلوبيين، واقتصارنا
عليهم لأنهم استفادوا من البلاغيين لإرساء أسس علم الأسلوب و زادوا عليهم
, و قد تبين ذلك من عرضنا لتلك المفاهيم , فمفهوم الأسلوب يرتكز عند كليهما
على خاصية الاختيار , فهو جوهر الفنية في التعبير عند البلاغيين , و هو أهم
عنصر عند الأسلوبيين .

كما أن المباحث الأسلوبية الحديثة عرف بعض منها في التراث البلاغي
العربي تحت اسم "علم المعاني"¹²⁷.

¹²⁷- أحمد درويش- "دراسة الأسلوب بين المعاصرة و التراث"- ص85.

إضافة إلى خاصية الاختيار، يرتكز الأسلوب على عنصرين آخرين هما: السياق و رد الفعل عند الأسلوبين، من هنا سنحاول أن نبرز فن أسلوب الحكيم في ضوء هذه الخصائص.

يتميز أسلوب الحكيم بخصائص نحاول أن نجملها فيما يلي:
أول ما يميزه هو كونه فنا بلاغيا قبل كل شيء بصفة عامة، و ثاني ما يميزه هو كونه صورة من صور خروج الكلام عن مقتضى الظاهر، و ثالث ما يميزه هو إحداثه رد فعل في نفس قارئه.

إن كون أسلوب الحكيم فنا بلاغيا يجعله يمتاز بخاصية الاختيار، ذلك أن تشكل أي فن بلاغي يتطلب اختيار ألفاظ معينة أو صيغة معينة تجعله يتميز عن غيره.

فالاختيار خاصية أساسية في فن أسلوب الحكيم، فمفهومه كما ورد هو تلقي المخاطب بغير ما يترقب، من هذا المفهوم نلمح اختيارا يتجسد في استعمال المتكلم معنى لم يتطلبه السائل، في إثارة معنى آخر يراه أكثر مناسبة، من هذا المنطلق أو هذا الاختيار تشكل هذا الفن و أصبح يمتاز عن غيره من الفنون.
و قبلا قد رأينا أن الاختيار المقصود في علم الأسلوب يتم على مستوى الجانب اللغوي (النحوي)، أي استعمال كلمة أو صيغة بدل أخرى يراها الكاتب أو المتكلم أكثر مناسبة، فالمعنى المراد هو واحد لدى المتكلم، غير أنه يفضل لفظة عن أخرى

أو صيغة عن غيرها، فهو يحاول أن يجعل أسلوبه في أجمل صورة، أما في استعمال أسلوب الحكيم فالأمر يختلف فمستعمله يختار معنى يراه أنفع، و بذلك يطغى على كلامه جمالية يدركها المستمع و يعرف أن سببها هو اختيار هذا المعنى، فهذا الأسلوب -أي الحكيم- له أثره على المستوى المعنوي-إثارة المعنى الأنفع- و على المستوى الجمالي- نتيجة اختيار لم يتوقعه السامع.

نترك الكلام عن الاختيار لنتحدث عن العنصر الثاني، و الذي يتمثل في الانحراف، و ما نجده يقابله في فن أسلوب الحكيم هو خروج الكلام عن مقتضى الظاهر.

فالأسلوب من هذا المنظور هو انحراف عن قاعدة ما، فهذا التعريف يوحي بوجود أصل و فرع، فالأصل هو كون الكلام عادي في مرحلة تشكيله الأولى، و الفرع هو ما يطرأ عليه من تغيرات و انحرافات في الألفاظ و الجمل.

و ما يبدو لنا مقابلا لهذين المفهومين في البلاغة هما مقتضى الظاهر و خروج الكلام عن مقتضى الظاهر، و قد تعرضنا سابقا لتعريفهما، و أسلوب الحكيم صورة من صور خروج الكلام عن مقتضى الظاهر، و ذلك أن السائل يريد أن يستعلم عن أمر ما، و لكنه يلتقي بإجابة لم يتوقعها فهنا يحدث الانحراف، و تغير في منحى الكلام.

و كما رأينا سابقا في الاختيار في أنه يتم على مستوى أوسع في أسلوب الحكيم فكذلك هو بالنسبة للانحراف، إذ أنه يتم على مستوى المعنى حيث يتوقع السائل معنى معين -أو إجابة معينة- و كذلك القارئ، لكن الإجابة تنحرف إلى معنى آخر.

و العنصر الثالث الذي يركز عليه الأسلوبيون في تعريف الأسلوب هو رد فعل المتلقي، و معنى هذا ما يحدثه الأسلوب في نفسية القارئ و يحمله على الانتباه، و إن كان هذا في الأسلوب عامة فإننا نجده أكثر ما نجده في فن أسلوب الحكيم، فإن له أثرا كبيرا في نفسية قارئه و سامعه، فعنه يقول السكاكي: « إن هذا الأسلوب الحكيم لربما صادف المقام فحرك من نشاط السامع ما سلبه حكم الوقور و أبرزه في معرض المسحور، و هو ألان شكيمة الحجاج لذلك الخارجي، و سل سخيمته حتى آثر أن يحسن على أن يسيء »¹²⁸.

¹²⁸- السكاكي "مفتاح العلوم"- ص140.

من كلام السكاكي يبدو أثر هذا الفن جليا في التأثير في الغير، فهو عنده قدرة كبيرة على التخلص من المواقف الحرجة و الصعبة، و ذلك إن أحسن المتكلم استعماله.

من عرضنا لهذه المقارنة البسيطة، وجدنا أن أسلوب الحكيم يلتقي مع مفهوم الأسلوب في نقاط كما أنه يختلف عنه في نقاط أخرى، فما يشترك بينما هو كون ما يميز الأسلوب عند الأسلوبين من العناصر الثلاثة التي ذكرناها موجودة في هذا الفن و إن كانت بصورة مختلفة، و لكنها محققة بصفة أو بأخرى، و ما نجده مختلفا هو تحقق هذه العناصر في هذا الفن بصفة أوسع تشمل المعنى، و منه يمكن أن نستخلص ما يلي:

هذه التسمية مناسبة جدا لهذا الفن، ذلك أن اقتران كلمة أسلوب بالحكيم له ما يفسره.

فكلمة أسلوب بمفاهيمها المختلفة لها خصائص تنطبق على هذا الفن بصفة عامة، ثم جاءت كلمة الحكيم لتخصص أكثر.

فبصفة عامة الأسلوب هو طريقة مخصوصة في الكلام من هنا كان مفهوم أسلوب الحكيم طريقة مخصوصة يمتاز بها الحكيم-البليغ.

و بصفة خاصة فإن أسلوب الحكيم يحمل خصائص مفهوم الأسلوب عند كل من البلاغيين و الأسلوبين، فالبلاغيون تحدثوا عن جمالية الأسلوب، و كيفية حسن اختيار الكلمات و وضعها في أماكنها المناسبة، و كانت جمالية أسلوب الحكيم باختيار معنى لم يتوقعه السامع. أما عند الأسلوبيين وجدنا أن الأسلوب يرتكز على ثلاث عناصر أساسية أسقطناها على فن أسلوب الحكيم فوجدناها محققة، و لكن بطريقة أخرى، فالاختيار

و الانحراف كان في المعنى، كما أن رد الفعل كان نتيجة عدم توقع ذلك المعنى.

و عدم التطابق الكلي، يعود إلى كلمة الحكيم التي ترافق هذه الكلمة،
فالحكيم من الحكمة , والحكمة مستمدة من المعنى، لهذا السبب وجدنا أن
الاختيار و الانحراف و رد الفعل يتم على مستوى المعنى.

الفصل الثاني

أسلوب الحكيم في القرآن الكريم

أسلوب الحكيم في القرآن الكريم

موضوعاته في القرآن الكريم

العلم بالغيب

بيان قدرته عزّ و جلّ

بيان منافع الناس

بيان فائدة الأهلّة

بيان المصرفه

أبعاده في القرآن الكريم

التوصّل إلى الإيمان بالله

إشارة ملكة التطلع

عدم ارتقاء العقل البشري

الأعمال بالنيات

نشر المحبة و العدل بين الناس

خصائصه الأسلوبية في القرآن

المفردة القرآنية

خصائص أسلوبية عامة

الجملة الفعلية و الاسمية

الخبر و الإنشاء

التقديم و التأخير

الحذف و الذكر

الفصل و الوصل

موضوعاته في القرآن الكريم

تضمنت الآيات التي ورد فيها فن أسلوب الحكيم مواضيع شتى منها علمه عزّ وجلّ الغيب، بيان قدرته عزّ وجلّ، بيان منافع الناس...

العلم بالغيب:

إن إدراكنا الكلي أنه هناك غيباً نعجز عن إدراكه يجعلنا نعيش في استقرار وأمان، كما أن الخوض في أمور غيبية ترهق تفكيرنا ولا تؤدّي حتماً إلى نتيجة، من أجل هذا يردّ عزّ وجلّ على كل من سأله عنها بأنه الواحد القهار الذي يعلمها.

فبالنسبة له عزّ وجلّ ليس هناك غيب، فإنه يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور، سواء على مستوى الغيب أو عالم الشهادة، أما بالنسبة لنا فهناك نوعان من الغيب: غيب مطلق وهو الغيب الذي لا نستطيع إدراكه إلا عن طريق ما أخبر لنا من أوصافه في المتواترات والآيات الدالة على وجوده في هذا الكون، وهذا الغيب يشمل الله تعالى والملائكة واليوم الآخر والموت والكسب... وهناك غيب نسبي وهو الميتافيزيقا العلمية مثل الذرة والكهرباء والجاذبية، وما شابه ذلك فإنها غيب بالنسبة للبشر، علم بالنسبة لله تعالى، إلا أنها احتمالية الغيب بالنسبة للبشر، ربما يأتي اليوم ليكشف العلم عن هذه النظريات.¹²⁹

فمن الأمور الغيبية التي سأل عنها البشر وكانت إجابتها بردها إلى علم الله عزّ وجلّ سؤالهم عن الساعة والروح والقرون الأولى، وبهذه الإجابات تحقق أسلوب الحكيم.

¹²⁹ - سعيد اسماعيل علي- "القرآن الكريم رؤية تربوية"- دار الفكر العربي- القاهرة- 2000م- ص50/49.

و هناك أمور غيبية أخرى سألوا عنها، و كانت الإجابة ببيان قدرته عزّ و جلّ، أو بيان منافع الناس.

- قال عزّ و جلّ: ﴿و يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ، قُلْ لَا

أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾.¹³⁰

فالسؤال هنا كان يقتضي إجابة بقوله أعلم أو لا أعلم وقتها، و لكنه - صلى الله عليه و سلم- بيّن لهم أنه عاجز عن معرفة ما ينفعه و ما يضره فكيف له بما يسألونه، و منه وقع أسلوب الحكيم.

ففي هذه الآية سألوا النبي -صلى الله عليه و سلم- في تحدّ و استعجال طالبين وقوع ما يوعدهم به من قضاء الله فيهم، فكان الجواب أنه هو نفسه لا يملك لنفسه ضرًّا و لا نفعًا، فهو لا يملك لهم الضر و النفع بطبيعة الحال.¹³¹

و بهذه الطريقة في الجواب لفتهم إلى عجز الإنسان الدائم، و حاجته المستمرة إلى الله، فهو مسيرهم في هذه الحياة و بيده كل شيء. فقيام الساعة من الأمور الغيبية التي احتفظ بها عزّ و جلّ في علمه فلا فائدة لنا في معرفتها.

و كما نجده عزّ و جلّ أخفى الغيب عن البشر، فإنه أخفى بعض الأمور على الملائكة أيضا.

- قال عزّ و جلّ: ﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَ يَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَ نَحْنُ

نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾.¹³²

في هذه الآية يوحى قول الملائكة أنه كان لديهم من شواهد الحال، أو من تجارب سابقة في الأرض، أو من إلهام البصيرة ما يكشف لهم عن شيء من فطرة

¹³⁰ - سورة يونس- الآيتين 48-49.

¹³¹ - سيد قطب- "في ظلال القرآن"- دار الشروق-توزيع مكتبة النجاح-بني سويف-ط17- 1797/11.

¹³² - سورة البقرة- الآية 30.

هذا المخلوق، ما يجعلهم يعرفون أو يتوقعون أنه سيفسد في الأرض و أنه سيسفك الدماء.¹³³

لقد خفيت عليهم حكمة المشيئة العليا في بناء هذه الأرض و عمارتها، و في تنمية الحياة و تنويعها و تحقيق إرادة الخالق و ناموس الوجود في تطويرها و تعديلها.¹³⁴

من هنا كان جوابه عزّ و جلّ بأنه يعلم ما لا يعلمون، ذلك أنهم لو علموا حقيقة رغبته في الخلق لما سألوا ذلك، فالحكمة كانت بإجابتهم على الإجمال دون التفصيل، فالتفصيل قد يكون مفسدة لهم.¹³⁵

فسؤال الملائكة هو سؤال استعلام و استكشاف عن الحكمة، و الله عزّ و جلّ أجابهم بأنه يعلم ما لا يعلمون، أي أنه يعلم من المصلحة الراجحة في خلق هذا الصنف على المفاصد التي ذكرتموها ما لا تعلمون.¹³⁶

- و قد سأل بنو إسرائيل سيّدنا موسى عليه السلام عن أحوال القرون الأولى، قال عزّ و جلّ: ﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى، قَالَ لِمُلَمَّا مِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابِي لَا يَضِلُّ رَبِّي وَ لَا يَنْسَى﴾.¹³⁷

فقد سأله عن حال من تقدم و خلا من القرون و عن شقاء من شقي منهم، و سعادة من سعد، فأجابهم بأن هذا سؤال عن الغيب، و قد استأثر الله به لا يعلمه إلا هو.¹³⁸

فهو أحوال ذلك الغيب البعيد في الزمان الخافي عن العيان إلى ربه الذي لا يفوت علمه شيء و لا ينسى شيئاً، فهو الذي يعلم شأن تلك القرون كله في

¹³³ - سيد قطب- "في ظلال القرآن" - 56/1.

¹³⁴ - المصدر السابق- 56/1.

¹³⁵ - الفخر الرازي- "التفسير الكبير" - دار إحياء التراث العربي- بيروت- ط3- 181/2.

¹³⁶ - عماد الدين ابن كثير- "تفسير القرآن العظيم" - دار مكتبة الهلال- لبنان- 1990م- 104/1.

¹³⁷ - سورة طه- الآيتين 51-52.

¹³⁸ - أبو القاسم جار الله الزمخشري- "الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل" - دار الفكر- 540/2.

ماضيها

و مستقبلها، و الغيب لله و التصرف في شأن البشر كله.¹³⁹

- و قد تجرأ اليهود و سألوا أكثر من هذا و كان غرضهم في ذلك أن يوقعوا بالأنبياء صلوات الله عليهم، فقد سألوا سيّدنا محمد -صلى الله عليه و سلم- عن الرّوح، و كانوا يعلمون أنّها من الغيبات التي احتفظ بها عزّ و جلّ في علمه.¹⁴⁰

قال عزّ و جلّ: ﴿وَسَأَلُونَكَ مَنِ الرُّوحُ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَ مَا أُوتِيتُهُ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾.¹⁴¹

فذهب أكثر أهل التّأويل إلى أنّهم سألوه عن الروح الذي يكون به حياة الجسد،

و قال أهل النظر منهم: إنّما سألوه عن كيفية الرّوح و مسلكه في بدن الإنسان، و كيف امتزاجه بالجسم و اتصال الحياة به، و هذا شيء لا يعلمه إلا الله عزّ و جلّ.¹⁴²

فاليهود أكثر ما كان سؤالهم عن الغيبات، يقال أنّ اليهود بعثت إلى سيّدنا محمد -صلى الله عليه و سلم-، و قالوا سلوه عن أصحاب الكهف و عن ذي القرنين

و عن الرّوح، فإنّ أجاب عنها أو سكت فليس بنبي، و إنّ أجاب عن بعض و سكت عن بعض فهو نبي، فبيّن لهم القصّتين و أبهم أمر الروح، و هو مبهم في التّوراة، فندموا على سؤالهم.¹⁴³

¹³⁹ - سيد قطب- "في ظلال القرآن"- 2338/16.

¹⁴⁰ - الزمخشري- "الكشاف"- 464/2.

¹⁴¹ - سورة الإسراء- الآية 85.

¹⁴² - أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي- "الجامع لأحكام القرآن"- دار الكتب العلمية- لبنان -1985- 210/10.

¹⁴³ - الزمخشري- "الكشاف"- 464/2.

هذه الأمور التي سألوا عنها هي غيبية، قال الله عزّ و جلّ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ

بِشَيْءٍ

مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾¹⁴⁴ إشارة إلى ما يستطيع الإنسان أن يعرفه سواء بوسائل الحس المعروفة أو باستدلال عقلي، فإنّما بمشيئة الله لأنه هو الذي خلق هذه الوسائل المعرفية، أما علم الغيب فلا قبل للإنسان بمعرفة شيء منه إلا بما يوحيه سبحانه و تعالى إلى رسله.¹⁴⁵

بيان قدرته عزّ و جلّ:

فيما سبق رأينا أن الناس سألوا عن أمور غيبية، فبيّن لهم عزّ و جلّ أن هذه الأمور مقصورة في علمه لا يمكن لأحد معرفتها، و هنا نرى أنهم سألوا عن أمور أخرى

إمّا غيبية أم لا، و الله عزّ و جلّ يجيبهم ببيان قدرته و نعمه على البشر.

لقد كان سؤال الصحابة عن بعض الأمور بداعي الفضول، أما اليهود و مشركو مكة فكان غرضهم السّخرية و الإيقاع بالأنبياء.

- فقد سأل فرعون سيدنا موسى -عليه السلام- عن ماهية الله عزّ و جلّ:

قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَ مَا رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ

مَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾¹⁴⁶.

إن خالق المكان و الزمان لا يحويه زمان و لا مكان، وإن خالق المادة لا يخضع للقوانين المادية، و الذي يريد تصور الحقيقة الإلهية بمخّه البشري القاصر غر

¹⁴⁴ - سورة البقرة- الآية 255.

¹⁴⁵ - سعيد اسماعيل علي- "القرآن الكريم رؤية تربوية"- ص48.

¹⁴⁶ - سورة الشعراء- الأيتين 23-24.

مخدوع، إننا عاجزون عن تصور الخلية و الذرة في عالم المادة، و في عماء ممتد بالنسبة لما وراء المادة فكيف نحاول استكناه الألوهية.¹⁴⁷

ففرعون قبّحه الله سأل أي شيء يكون ربّ العالمين و هو سؤال المنتكّر للقول من أساسه، المتهكّم على القول و القائل، المستغرب للمسألة كلّها حتى ليراها غير ممكنة التصور، غير قابلة لأن تكون موضوع حديث!، و إجابة سيّدنا موسى -عليه السلام- كانت في محلّها إذ صرفه عن سؤاله إلى بيان خلقه عزّ و جلّ، و هو جواب يكافئ ذلك التجاهل و يغطيه.¹⁴⁸

و قد وقع سؤاله هذا بعد أن غلب موسى فرعون بالحجة، و لم يجد اللّعين حجة يواجهه بها، فرجع إلى معارضته فاستفهمه استفهاما عن مجهول من الأشياء، بعدها قال فرعون: ﴿أَلَا تَسْتَمِعُونَ﴾ على معنى الإغراء و التعجب من سفه المقالة. إذا كانت عقيدة القوم أن فرعون ربهم و معبودهم و الفراغنة قبله كذلك، فزاد موسى في البيان بقوله: ﴿رَبُّكُمْ وَ رَبُّ آبَائِكُمُ الْأَوَّلِينَ﴾ فجاء بدليل يفهمونه عنه.¹⁴⁹

فكان مقتضى السؤال أن يبين ماهية الربّ سبحانه و تعالى من أي شيء هو، كما يقال في جواب ما الإنسان إنه حيوان ناطق، و لكن موسى أعرض عن سؤال فرعون لجهله عن حقيقة الله تعالى، أو لتجاهله، و أجابه عمّا يخصّه و يلزمه الاعتراف به من أنّه سبحانه ربّ السماوات و الأرض و ما بينهما، لا ربويّة فرعون الكاذبة.¹⁵⁰

- و قد ورد له استفهام بـ "من" في موضع آخر، فأتى موسى بالصفات الدالة على الله من مخلوقاته التي لا يشاركه فيها مخلوق.

¹⁴⁷ - محمد الغزالي- "الأصول الخمسة للقرآن الكريم"- دار الهدى- الجزائر- ص19.

¹⁴⁸ - سيد قطب- "في ظلال القرآن"- 2592/19.

¹⁴⁹ - القرطبي- "الجامع لأحكام القرآن"- 67/14.

¹⁵⁰ - محمد الأمين بن محمد المختار- "أضواء في إيضاح القرآن بالقرآن"- تحقيق صلاح الدين العلابي- دار

إحياء التراث العربي- لبنان- 182/6.

قال الله عزّ و جلّ: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى، قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ

شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾. 151

خاطب الاثنین و وجّه النداء إلى أحدهما و هو موسى لأنه الأصل في النبوة و هارون وزيره و تابعه، و يحتمل أن يحمله خبثه و دعارته على استدعاء كلام موسى دون كلام أخيه، لما عرف من فصاحة هارون و الرثه في لسان موسى. 152

فكان جواب سيّدنا موسى أن قال: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ، ثُمَّ

هَدَى﴾ أي أنّه يعرف بصفاته، و ليس له اسم علم حتى يقال فلان، بل هو خالق العالم، و هو الذي خصّ كل مخلوق بهيئة و صورة. 153

إن الله أعزّ و أسمى من أن يجعل وجوده قضية تحتمل القيل و القال و الأخذ و الرد، و إذا كان في البشر عميان لا يحسّون مجده، فهم أنزل رتبة من أن ينصب لهم منبر، أو تصور لهم شبهة. 154

- و من الآيات نلمس فيها حكمة إجابة الخالق عند سؤال المنكر الجاحد

قوله تعالى: ﴿وَ ضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾. 155

هذا استبعاد لإعادة الله تعالى ذي القدرة العظيمة، الأجساد و العظام الرّميمة، و الخالق عزّ و جلّ يدعو الجاحد إلى النظر في خلقه أوّلا كيف نشأ من العدم، فالأمر هذا أكثر أهمية مما يسأل، فالقادر على الخلق من العدم قادر على إعادة الخلق و جمع العظام و كسوها ثانية. 156

151 - سورة طه- الآيتين 49-50.

152 - الزمخشري- "الكشاف"- 539/2.

153 - القرطبي- "الجامع لأحكام القرآن"- 137/11.

154 - محمد الغزالي- "المحاور الخمسة للقرآن الكريم"- ص29.

155 - سورة يس- الآيتين 78-79.

156 - ابن كثير- "تفسير القرآن العظيم"- 87/5.

فاستبعاد إحياء العظام بعد أن بليت و رمت يستلزم رفض الإيمان بالبعث،
و الله عزّ و جلّ يفتنّ العباد بعلّة منطقية فيقول: ﴿قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ
مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾.

و في هذه العلة قياس عقلي لا يقبل القدح لاتحاد العلة فيه، فإذا تصورنا أن
النشأة الأولى للإنسان التي كانت من العدم المحض و على غير مثال سابق، هي
مظهر لقدرته و إرادته و علمه و حكمته، فإن هذه الصفات هي على إطلاقها و
عمومها، فإذا كانت هذه هي علة الخلق ابتداءً، فهي نفسها علة الإحياء مرة
ثانية. 157

فإجابته عزّ و جلّ كانت على طريقة أسلوب الحكيم فحمل استفهام
القائل على خلاف مراده، لأنه لما قال: ﴿مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ﴾ لم يكن
قاصداً طلب تعيين المحي، و إنما الاستحالة، فأجيب جواب من هو متطلب
علماً. 158

في الآيات السابقة نلمس إنكار السائلين و عدم إيمانهم بالله عزّ و جلّ، و
نذكر هنا هذه الآيات التي يذكر الله عزّ و جلّ بقدرته عند استغراب و تعجّب
بعض المؤمنين في ذلك.

-قال عزّ و جلّ: ﴿قَالَ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً وَ قَالَ الْكَاذِبُ وَ
امْرَأَتِي إِذَا قَالَ كَذَبْتَ إِنَّكَ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ 159 .

أنى بمعنى كيف، و في هذا الاستفهام وجهان: أحدهما أنه سأل هل يكون
له الولد و هو و امرأته على حالهما أو يردان إلى حال من بلد؟ الثاني سأل هل
يرزق الولد من امرأته العاقر أو من غيرها. 160

157- سعيد اسماعيل علي- "القرآن الكريم رؤية تربوية"- ص63.

158- محمد الطاهر بن عاشور- "تفسير التحرير و التنوير"- الدار التونسية- تونس- 1984م- 76/23.

159- سورة آل عمران- الآية 40.

160- القرطبي- "الجامع لأحكام القرآن"- 398/3.

و الله عزّ و جلّ يجيبه بقوله: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ أي أنه يفعل ما يشاء من الأفعال العجيبة مثل ذلك الفعل، و هو خلق الولد بين الشيخ الفاني و العجوز العاقر.¹⁶¹

فسيدنا زكريا لم يكن منكرا لقدرة الله عزّ و جلّ على منحه ولدا لهذا سأل عن الطريقة التي سيمنحه بها، و لكن الله عزّ و جلّ أعلمه أن هذا من أسرار خلقه، و أنه يكفي أن تدرك و تتيقن أنه عزّ و جلّ قادر على كل شيء.

- و وقع مثل هذا السؤال من مريم بنت عمران حين بشرت بولدها عيسى: قال عزّ من قائل: ﴿قَالَتْ رَبِّ اجْعَلْ لِي آيَةً وَأَنْتَ أَعْلَمُ الْغُيُوبِ﴾¹⁶²، و جاءها الجواب يردها إلى الحقيقة البسيطة التي يغفل عنها البشر لطول ألفتهم للأسباب و المسببات الظاهرة لعلمهم القليل، و مألوفهم المحدود قال: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾.

و حين يردّ الأمر إلى هذه الحقيقة الأولية يذهب العجب، و تزول الحيرة، و يطمئن القلب، و يعود الإنسان على نفسه يسألها في عجب كيف عجت من هذا الأمر الفطري الواضح القريب؟.¹⁶³

فاستفهامها كان للإنكار و التعجب، و لذلك أجيبت جوابين أحدهما: كذلك الله يخلق ما يشاء فهو لرفع إنكارها، و الثاني إذا قضى أمرا لرفع تعجبها.¹⁶⁴

من هذا المنطلق كان عزّ و جلّ يجيب الناس كلما سألوا عن أمور غيبية بتذكيرهم بقدرته العظيمة، ليتأكدوا من هذه الحقيقة و يطمئنوا إليها، فالسؤال

¹⁶¹ - الزمخشري- "الكشاف"- 354/1.

¹⁶² - سورة آل عمران- الآية 47.

¹⁶³ - القرطبي- "الجامع لأحكام القرآن"- 398/3.

¹⁶⁴ - محمد الطاهر بن عاشور- "تفسير التحرير و التنوير"- 248/3.

كيفما كان سواء عن الماهية أو الطريقة، أو السبب إذا تعلق بالغيب، كان الجواب ببيان قدرته عزّ وجلّ و علمه المطلق له.

بيان منافع الناس:

و قد سأل الناس رسولهم الكريم عن بعض الأمور التي احتاروا فيها، فأجيبوا ببيان ما ينفعهم و يناسبهم، من بين هذه الأمور سؤالهم عن الخمر.

قال الله عزّ وجلّ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ

مَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾¹⁶⁵.

إن سؤال الصحابة الرسول -صلى الله عليه و سلم- عن الخمر عن ظاهر يحتمل أنهم سألوا عن حقيقته و ماهيته، و يحتمل أنهم سألوا عن حل شربه و حرمة، و إن كان كذلك فإنّ الجواب بذكر الحرمة، دلّ أنّ ذلك السؤال كان واقعا عن الحلّ و الحرمة.¹⁶⁶

أمّا عن أسلوب الحكيم فنلمسه في إجابته عزّ وجلّ بما يناسب مقام السائلين، و عدم نصّه التحريم الكلّي.

و مما يدل على أن السائلين لم ينتظروا هذه الإجابة، قول عمر بن الخطاب بعد نزول هذه الآية: "اللهمّ بين لنا في الخمر بيانا شافيا"، و استمرّ هذا الدعاء حتى نزلت آخر آية في التحريم.¹⁶⁷ فلو «اكتفينا بظاهر نص هذه الآية عمّا يحيط بهذا النص من ظروف أخرى، فقطعنا فهمنا لهذا النص عن مقامه، لكان هذا الفهم فهما خاطئا لرأي الإسلام في الخمر، و لبدا الأمر في النهاية و كأن الإسلام لم يحرمّ الخمر، إذ هو يفاضل بين المنافع و الإثم في تناولها و في اجتنابها، و لكنّ المقام اللازم للفهم الصحيح لهذا النص القرآني يمكن وصفه بعناصر متنوعة منها

¹⁶⁵ - سورة البقرة- الآية 219.

¹⁶⁶ - الفخر الرازي- "التفسير الكبير" - 40/6.

¹⁶⁷ - ابن كثير- "تفسير القرآن العظيم" - 371/1.

حبّ العرب للخمر، و اقترانها في أذهانهم بمفاهيم موقرة جدًا عندهم كفكرة "المروءة" و "السؤدد".¹⁶⁸

بيان فائدة الأهلة:

قال الله عزّ و جلّ: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَنِ الْأَهْلَةُ قُلْ هِيَ مَوَاقِبَتُهُ لِلنَّاسِ وَ الْعَجِّ﴾¹⁶⁹، إن هذه الآية من أبرز الآيات التي يستشهد بها في أسلوب الحكيم، و قد سأل فيها الصحابة رضوان الله عليهم عن ماهية الأهلة، فهم يسألون عن الشؤون التي تصادفهم في حياتهم الجديدة، و يريدون أن يعرفوا كيف يسلكون فيها وفق تصوّرهم الجديد، و عن الظواهر التي تلفت حسهم الذي استيقظ تجاه الكون الذي يعيشون فيه، فهم يسألون عن الأهلة. ما شأنها؟ ما بال القمر يبدو هلالاً، ثم يكبر حتى يستدير بدراً، ثم يأخذ في التناقص حتى يرتدّ هلالاً ثم يختفي ليظهر هلالاً من جديد.¹⁷⁰

و الجواب كان بتبيان وجه الحكمة في زيادة و نقصان الأهلة، و هو كونها معالم يوقت بها الناس مزارعهم و متاجرهم، و محال ديونهم و صومهم و فطرهم، و عدد نسائهم و أيام حيضهنّ و مدد حملهنّ و غير ذلك، و معالم للحج يعرف بها وقته.¹⁷¹

و هناك رواية أخرى تقول: إنهم قالوا: يا رسول الله لم خلقت الأهلة؟، و قد يكون هذا السؤال في صيغته الأخيرة أقرب إلى طبيعة الجواب. و سواء كان هذا الجواب ردّاً على السؤال الأول أو على السؤال الثاني، فهو في كلتا الحالتين اتجه إلى واقع حياتهم العملي لا إلى مجرد العلم النظري، و حدّثهم عن وظيفة الأهلة في واقعهم و في حياتهم و لم يحدّثهم عن الدورة الفلكية للقمر، و كيف

¹⁶⁸ - تمام حسان- "اللغة العربية معناها و مبناها" - ص349.

¹⁶⁹ - سورة البقرة- الآية 189.

¹⁷⁰ - سيد قطب- "في ظلال القرآن" - 179/2.

¹⁷¹ - الزمخشري- "الكشاف" - 232/1.

تتم فهي داخلة في مدلول السؤال: ما بال القمر يبدو هلالاً... الخ، كذلك لم يحدثهم عن وظيفة القمر في المجموعة الشمسية، أو في توازن حركة الأجرام السماوية، و هي داخلة في مضمون السؤال: لماذا خلق الله الأهلّة؟¹⁷²

بيان المصرف:

لقد سأل المسلمون الرسول -صلى الله عليه و سلم- عن النفقة، و أجيّبوا ببيان مصرفها؛ أي إلى من تقدّم، و عن الأنفال فكانت الإجابة بتبيان أن حكمها للرسول -صلى الله عليه و سلم-

-قال عزّ و جلّ: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ وَ الْيَتَامَى وَ الْمَسْكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ وَ مَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾¹⁷³.

في هذه الآية الكريمة سألوا عما ينفقون، فأجيّبوا ببيان المصرف، خلافاً لحقيقة سؤالهم.¹⁷⁴

و مع هذا فقد تضمن قوله ما أنفقتم "من خير" بيان ما ينفقونه و هو كل خير، و بنى الكلام على ما هو أهم، و هو بيان المصرف، لأنّ النفقة لا يعتدّ بها إلا أن تقع موقعها.¹⁷⁵

و هناك من يرى أنهم سألوا عن كيفية الإنفاق، أي يسألونك كيف ينفقون، فبين لهم عزّ و جلّ ذلك فقال: ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّوَالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ...﴾، أي اصرفوها في هذه الوجوه، ثم قال تعالى: ﴿وَ مَا تَفَعَّلُوا مِنْ خَيْرٍ

¹⁷² - سيد قطب- "في ظلال القرآن" - 180/2-181.

¹⁷³ - سورة البقرة- الآية 215.

¹⁷⁴ - بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي- "البرهان في علوم القرآن" - تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم- دار

الجيل- لبنان- 1988م- 42/4.

¹⁷⁵ - الزمخشري- "الكشاف" - 254/1.

فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلَيْهِ، أي مهما صار منكم من فعل معروف فإن الله يعلمه، و
سيجزئكم على ذلك أوفر الجزاء فإنه لا يظلم أحدا مثقال ذرة.¹⁷⁶

و أيما ما كان السؤال فإن الجواب كاف له، ذلك أنه تضمن نوع الإنفاق،
و كيفية الإنفاق، و إن جعل من أسلوب الحكيم فلأن الكلام مبني أكثر على بيان
مصرف الإنفاق، و القارئ لأول وهلة لا ينتبه أنه تضمن نوع الإنفاق و هو كل
خير.

- و من الآيات التي أجيب فيها المسلمون ببيان المصرف قوله عزّ و جلّ:

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا ذَاتَهُ
بَيْنَكُمْ﴾¹⁷⁷.

روى عبادة بن الصامت قال: خرج رسول الله -صلى الله عليه و سلم-
إلى بدر فلقوا العدو، فلما هزمهم الله اتبعتهم طائفة من المسلمين يقتلونهم، و
أحدقت طائفة برسول الله -صلى الله عليه و سلم-، و استولت طائفة على
العسكر و النهب، فلما نفى الله العدو و رجع الذين طلبوهم قالوا: لنا النفل، نحن
الذين طلبنا العدو و بنا نفاهم الله و هزمهم، و قال الذين أحدقوا برسول الله -
صلى الله عليه و سلم- ما أتم أحقّ به منا، بل هو لنا، نحن أحدقنا برسول الله -
صلى الله عليه و سلم- لئلا ينال العدو منه غرّة، فترلت هذه الآية.¹⁷⁸

و خلاصة القول أن المهاجرين و الأنصار اختلفوا عن حكم الأنفال، و إلى
أي الجماعتين تحقّ، و نسوا تقديم الرسول -صلى الله عليه و سلم- في كل أمر،
من أجل هذا بين الله عزّ و جلّ لهم حكمها، و ردّها إلى الله و الرسول و دعاهم
إلى تقوى الله، و إصلاح ذات بينهم، بعدما ساءت أخلاقهم في النفل.¹⁷⁹

¹⁷⁶- ابن كثير- "تفسير القرآن العظيم"- 366/1.

¹⁷⁷- سورة الأنفال- الآية 01.

¹⁷⁸- القرطبي- "الجامع لأحكام القرآن"- 229/7.

¹⁷⁹- سيد قطب- "في ظلال القرآن"- 1463/9.

و تفریح ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ﴾ على جملة ﴿الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولُ﴾ لأن تلك الجملة كانت رفعا للنزاع بينهم في استحقاق الأنفال، ذلك أنه لما تبين أن حكمها لله و الرسول وقع ذلك على كراهة كثير منهم ممن كانوا يحسّون أنهم أحق بتلك الأنفال ممن أعطاهما، تبعا لعوائدهم السالفة في الجاهلية، فذكرهم الله بأن قد وجب الرضا بما يقسمه الرسول منها.¹⁸⁰

فالسؤال كما رأينا عن حكم قسمة الأنفال أهى للمهاجرين أم الأنصار، و كان الجواب بما لم يتوقعوه بإرجاع حكم قسمته للرسول- صلى الله عليه و سلم- و هذا أنسب لهم و أصلح.

¹⁸⁰ - الطاهر بن عاشور- "تفسير التحرير و التنوير" - 253/9.

II - أبعاده في القرآن الكريم:

إن ورود أسلوب الحكيم في الآيات التي ذكرناها كان لأغراض و أبعاد جلية، فعدم مطابقة الجواب السؤال وراءه معنى، و هذا المعنى إنما يدرك بالتأمل الدقيق لهذه الآيات.

من الأبعاد التي تضمنتها ما يلي:

التوصل إلى الإيمان بالغيب:

لقد أخفى الله عزّ و جلّ علينا بعض الأمور، و ردها إلى علمه عزّ و جلّ عند سؤالنا إياها، و في هذا الإخفاء و التذكير لنا بأنه الواحد الذي يعلمها هدف و بعد جليل مؤداه الإيمان بعالم مجهول و هو الغيب، فالله عزّ و جل يعلمنا و يدرّب عقولنا على الإيمان بالغيب لنجد تفسيراً لكل ما يصادفنا في هذه الدنيا، فلا بد أن نطمئن إلى الله عزّ و جلّ حتى نتمكن من العيش بسلام و ارتياح. « فالإيمان أساس السعادة و الطمأنينة النفسية للفرد، و العمل بالقوانين الإلهية فيه الخير و السعادة للبشرية، و قد أراد الله لهذا الإنسان الذي اصطفاه من مخلوقاته جوامع الخير و سبل الحق و الهداية، فأيد بفضله فطرته الطبيعية بأدلة و آيات كونية ». 181

فمن الأمور التي أخفاها عزّ و جلّ، و ردها إلى علمه: يوم القيامة، الروح، الخلق... الخ.

و الآيات التي نلمس فيها هذا البعد هي:

- ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنْتُمْ صَادِقِينَ، قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَ

لَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾. 182

181 - أحمد شامية- "خصائص العربية و الإعجاز القرآني" - ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- 1995م-

ص16.

182 - سورة يونس- الآيتين 48-49.

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾. 183

﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى، قَالَ عَلَّمَهَا مِنْ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَ لَا

يَنْسَى﴾ 184

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَ لَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ ذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا

يَشَاءُ﴾ 185

﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَ قَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَ امْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ ذَلِكَ

اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ 186

كلّ هذه الآيات سألوا فيها عن أمور غيبية، و الإجابة فيها كان بإرجاع علمها إلى الله عزّ و جلّ، و الهدف من ذلك هو الوصول إلى حقيقة الإيمان بالله عزّ و جلّ، فأخفاء أمر الساعة؛ و قصر علمها على مالك أمرها سبحانه، بتُّ للحدز، و الإشفاق في قلوب أهل الشريعة الموقنين بالله و اليوم الآخر من أهل الكتب كلّها. 187

- و في إخفاء أمر الروح « ليس في هذا حجر على العقل البشري أن يعمل، و لكن فيه توجيهها لهذا العقل أن يعمل في حدوده و في مجاله الذي يدركه، فلا جدوى من الخبط في التّيه، و من إنفاق الطاقة فيما لا يملك العقل إدراكه لأنه لا يملك وسائل إدراكه، و الرّوح غيب من غيب الله لا يدركه سواه،

183 - سورة الإسراء- الآية 85.

184 - سورة طه- الآيتين 51-52.

185 - سورة آل عمران- الآية 47.

186 - سورة آل عمران- الآية 40.

187 - محمد محمد أبو موسى- "من أسرار التعبير القرآني"- دراسة تحليلية لسورة "الأحزاب"- مكتبة وهبة-

القاهرة- ط2- 1997م- ص440.

و سرّ من أسرارهِ القدسيّة أودعه هذا المخلوق البشري، و بعض الخلائق التي لا نعلم حقيقتها». ¹⁸⁸

فقوله عزّ و جلّ: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾، معناه أنه «أمر عظيم و شأن كبير من أمر الله تعالى، مبهما له و تاركا تفصيله، ليعرف الإنسان على القطع عجزه عن علم حقيقة نفسه مع العلم بوجودها، و إذا كان الإنسان في معرفة نفسه هكذا، كان بعجزه عن إدراك حقيقة الحق أولى، و حكمة ذلك تعجيز العقل عن إدراك معرفة مخلوق مجاور له، دلالة على أنه عن إدراك خالقه أعجز». ¹⁸⁹

- و في إجابته عزّ و جلّ لذكرها إشارة إلى قدرته و وحدانيته عزّ و جلّ، و توصّل إلى الإيمان المطلق بعلمه المطلق و قدرته على كل شيء.

قال عزّ و جلّ: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾، أي أن «الأمر مألوف مكرور معاد حين يرد إلى مشيئة الله، و فعله الذي يتم دائما على هذا النحو، و لكن الناس لا يتفكرون في الطريقة، و لا يتدبّرون الصنعة، و لا يستحضرون الحقيقة» ¹⁹⁰.

فبهذه الطلاقة يفعل عزّ و جلّ ما يشاء، فيرزق الشيخ و العاقر بالبنين، ذلك أنه لا قياس و لا مألوف تجاه قدرته عزّ و جلّ فكل شيء مردّه إلى توجه المشيئة، و المشيئة مطلقة من كل القيود. ¹⁹¹

و بالشيء نفسه أجاب عزّ و جلّ مريم بنت عمران لما سألته في استغراب، فبهذا التبسيط يبعد القرآن كل الشبهات التي تعقدها الفلسفات المعقدة، و يقر

¹⁸⁸ - سيد قطب- "في ظلال القرآن"- 2249/15.

¹⁸⁹ - القرطبي- "الجامع لأحكام القرآن"- 210/10.

¹⁹⁰ - سيد قطب- "في ظلال القرآن"- 394/3.

¹⁹¹ - نفسه- 395/3.

الأمن في القلوب و العقول سواء، و التي مؤداها الإيمان بالغيب و تحكمه عزّ و جلّ فيه.

و الإيمان بوجود عالم غيبي أصبح بديهيا في وقتنا الحاضر، فكل التجارب بيّنت ذلك فقد: « آمن العلم المادي الذي وضع جل الكائنات تحت التجربة و الاختبار بأن هناك عالما غيبيا وراء هذا العالم المشاهد، و أن عالم الغيب أدق و أعمق من عالم الشهادة، و أكثر المخترعات الحديثة التي أخذت بألباب الناس تحجب وراءها هذا السر الخفي الذي عجز العلم عن إدراك كنهه، و إن لاحظ آثاره و مظاهره، و قرّب هذا بعد الشقّة بين التنكر للأديان و الإيمان بها مصداقا لقوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَ فِي أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَّبِعِنَ لَهُمْ أَنَّهُ

الْحَقُّ ۗ﴾ 192 193 .

¹⁹² - سورة فصلت- الآية 53.

¹⁹³ - مناع قطان- "مباحث في علوم القرآن" - مكتبة وهبة- القاهرة- ط10- 1998م- ص24.

إثارة ملكة التطلع:

لقد خلق الله عزّ و جلّ هذا الكون الهائل، و وجهنا إلى التأمل فيه، فهو الدليل القطعي على قدرته عزّ و جلّ و وحدانيته.

« إن هذا الكون هو المسرح الأول لفكرنا، و هو ينبوع الأول لإيماننا، و الدهول عن الكون سقوط إنساني ذريع، و حجاب عن الله غليظ، و فشل في أداء رسالتنا التي خلقنا من أجلها ».¹⁹⁴

و الآيات التي حثنا فيها الله عزّ و جلّ على التأمل في الكون كثيرة، نذكر التي تخصنا في هذا الصدد، أي التي ورد فيها أسلوب الحكيم.

قال عزّ و جلّ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَ مَا رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ مُوقِنِينَ﴾.¹⁹⁵

﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى، قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾¹⁹⁶

﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾¹⁹⁷

﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيْتُ لِلنَّاسِ وَ الْحَجِّ﴾¹⁹⁸

-لقد دعى الله عزّ و جلّ سيدنا موسى إلى إجابة فرعون حين سأله عنه بأنه ربّ السماوات و الأرض، و في هذا دعوة إلى التفكير في خلقه العظيم له و لنا كافة، ففرعون ادّعى الألوهية و هو ذو ملك ضئيل بالنسبة إلى ملكه عزّ و جلّ، فكان جواب موسى عليه السلام يحمل استصغار ما يدعيه فرعون مع بطلانه، و توجيه نظره إلى هذا الكون الهائل، و التفكير فيمن يكن ربّه.¹⁹⁹

¹⁹⁴ - محمد الغزالي- "المصادر الخمسة للقرآن الكريم"- ص63.

¹⁹⁵ - سورة الشعراء- الآية 23.

¹⁹⁶ - سورة طه- الآيتين 49-50.

¹⁹⁷ - سورة يس- الآيتين 78-79.

¹⁹⁸ - سورة البقرة- الآية 189.

¹⁹⁹ - سيد قطب- "في ظلال القرآن"- 2592/19.

إن التفكير في ما خلقه عزّ و جلّ، و التأمل فيه بإمعان يؤدي إلى طريق واحد و هو الإيمان بالله و وحدانيته.

« هذه العقيدة عرضت بصور مختلفة، و بأسلوب يشترك في فهمه سائر أصناف الناس و طبقاتهم، و لذلك تراه ينبّه الناس إلى أدلة الكون، و ما يشيع فيه من دقّة النظام، و روعة الخلق، و جمال التنسيق، دون أن يعرض لشيء من الأدلة المنطقية أو العلمية التي تخصّ فئة معينة من الناس». ²⁰⁰

- و في سؤال آخر لفرعون عن ربّ العالمين، يجيبه سيدنا موسى -عليه السلام- بتبينه له أنه خالق كل شيء، قال عزّ و جلّ: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَمَّطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾، فالتأمل في خلق الله يؤدي حتما إلى الإقرار بوجوده و وحدانيته يقول الإمام محمد الغزالي: « و هكذا ترى مشاهد الكون هي الدافع إلى الإيمان، الباعث على التوحيد، القائد إلى التوبة، الناقل من الهلاك إلى النجاة». ²⁰¹

فالإنسان إذا اختلى بنفسه و تجرد من كلّ ما ينتمي إليه من مذهب، و ما ورثه من رأي أو عادة و استفرغ صدره من كلّ دين، و سرح فكره في هذا الكون البديع ليل و نهار، صحار و بحار، نبات و أشجار... الخ، شعر من أعماق وجدانه شعورا قويا أن هنالك خالقا قادرا، و مدبّرا حكيما يسيّر هذا الكون على دستور العدالة و الحكمة و العلم. ²⁰²

في كلا السؤالين نلمح توجيهها من الله عزّ و جلّ إلى التأمل في الكون، فالحكمة اقتضت في كلا الموضوعين، أي عند السؤال عن الماهية إلى الإجابة بالحث على التمعن في ملكوته.

²⁰⁰ - بكري شيخ أمين- "التعبير الفني في القرآن الكريم" - دار العلم- 1994م- ص258.

²⁰¹ - محمد الغزالي- "المحاور الخمسة للقرآن الكريم"- ص59.

²⁰² - محمد صالح الصديق- "مقاصد القرآن"- ص184.

- و حثّ آخر إلى التأمل في خلقه جلّ و علا في قوله عزّ و جلّ: ﴿قُلْ يُخَبِّئُهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾.

في هذه الآية الكريمة إنكار من السائل لإعادة إحياء العظام ممّا يقتضي عدم الإيمان بالله عزّ و جلّ، من أجل هذا كان الجواب بلفت السائل إلى قضية أخرى، وهي خلق العظام لأول مرة.

- و في قوله عزّ و جلّ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِبَتُهُ لِلنَّاسِ وَ

الْعَمِّ﴾

فهذه الإجابة تؤدي إلى فضول السائل و القارئ بصفة عامة، و تيقنه أن لهذه الأهله فائدة عظيمة، و أن أمرها دقيق لا يدرك إلا بالتفكير، و البحث المعمق.

و قد عرف شأنها أو بعض شأنها علماء الفلك، فالله عزّ و جلّ ذكر للسائلين أهم فائدة للأهله، و هي وسيلة يعرف بها حساب الأوقات، و ترك معرفة فوائدها الأخرى، و دقائق خلقها و تغييرها للإنسان الذي ملكه عقلا هو مصدر علم كثير إن هو أحسن استعماله.

فإحفاؤه عزّ و جلّ أمر الأهله كذلك بعض الأمور الأخرى إعجاز في حدّ ذاته، ذلك أن: « إعجازه العلمي ليس في اشتماله على النظريات العلمية التي تتجدد و تتبدل، و تكون ثمرة للجهد البشري في البحث و النظر، و إنما في حثّه على التفكير، فهو يحثّ الإنسان على النظر في الكون و تدبّره، و لا يشلّ حركة العقل في تفكيره، أو يحول بينه و بين الاستزادة من العلوم، ما استطاع إلى ذلك

سبيلا ». 203

²⁰³ - مناع قطان - "مباحث في علوم القرآن" - ص 262.

فكل ما خلقه الله عزّ و جلّ ينطق بوحدايته عزّ و جلّ « و لهذا لا نجد في القرآن آية تناقش المؤمنين في أسباب إيمانهم بالله عزّ و جلّ أو تحاول التدليل على صحّة عقيدتهم بطريقة مباشرة، فكلّ ظاهرة من ظواهر الكون آية للمؤمن برّبّه يزداد بها إيمانه، و لا يؤسس عليها، و تقوى بها عقيدته». ²⁰⁴

عدم ارتقاء العقل البشري:

و هناك أمور أخفاها عنا عزّ و جلّ، أو لم يعطنا فيها حكمه النهائي لحكمة جليلة، ألا و هي عدم ارتقاء مستوانا الفكري لتقبّلها، من الآيات التي نلمس فيها هذا البعد، قوله عزّ و جلّ: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَنِ الْأَهْلَةُ قُلْ هِيَ مَوَاقِبَتُهُ لِلنَّاسِ وَالْحَمْدُ﴾.

ففي الآية الأولى سؤال عن ماهية الأهلة، و هو سؤال كبير يحتاج إلى كلام طويل، و الله عزّ و جلّ أراد أن نكتشف أمرها بأنفسنا لنعرف عظمة خالقها، ثم أنه حتى و لو أجابهم بما أرادوا كان صعبا عليهم إدراك ذلك، فالعقليات آنذاك كانت بسيطة، كذلك العلوم لم تكن متطورة، و من الصعب عليهم أن يستوعبوا ما طلبوه.

قال سيّد قطب: « و الإجابة العلمية عن هذا السؤال ربّما كانت تمنح السائلين علما نظريا في الفلك، إذ هم استطاعوا بما لديهم من معلومات قليلة في ذلك الحين أن يستوعبوا هذا العلم، و لقد كان ذلك مشكوكا فيه كلّ الشك، لأن العلم النظري من هذا الطراز في حاجة إلى مقدمات طويلة، كانت تعدّ بالقياس إلى عقلية العالم كله في ذلك الزمان معضلات، من هنا عدل عن الإجابة التي لم تنهيها لها البشرية، و لا تفيدها كثيرا في المهمة الأولى التي جاء القرآن من

²⁰⁴ - سعيد اسماعيل علي- "القرآن الكريم رؤية تربوية"- ص48.

أجلها، و ليس مجالها على أية حال هو القرآن، إذ القرآن قد جاء بما هو أكبر من تلك المعلومات الجزئية». ²⁰⁵

و أمر الأهلة أمر عظيم لا زال علماء الفلك يبحثون فيه، فالقمر أول الشهر يكون المحاق لانمحاق نوره و لاختفائه، ثم بعد سبعة أيام يصير إلى "التربيع الأول"، ثم يصير "بدرا" وسط الشهر، ثم يتحول إلى "التربيع الثاني" بعد الأسبوع الثالث، ثم يكون في المحاق آخر الشهر و هكذا دواليك. ²⁰⁶

و في آية أخرى يقول عزّ و جلّ: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَ الْقَمَرَ نُورًا

وَ قَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا مَدَدَ السِّنِينَ وَ الْحِسَابَ مَا خَلَقَ اللَّهُ ذَلِكَ إِلَّا بِالْحَقِّ نُفُصْلُ الْآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ ²⁰⁷

و قوله: ﴿وَ قَدَرَهُ مَنَازِلَ﴾ يقصد جعله يتزل كل ليلة من النجوم و هي ثمانية و عشرون متزلا كل شهر، و تسمى هذه المنازل البروج، و هذا التقدير إنما كان من الله عزّ و جلّ ليعلم الناس عدد السنين و الحساب. ²⁰⁸

فهل حقيقة تغير الأهلة، و هذا التفسير الذي توصل إليه الفلكيون كان في مقدور السائلين أن يستوعبوا في ذلك الوقت، ثم فرضا أن الرسول -صلى الله عليه و سلم- أجابهم و حاول إفهامهم فما الجدوى من ذلك؟ لا جدوى منه سوى إشباع فضول السائلين، غير أن صرفهم عن حقيقة ما سألوه إلى أمر آخر فيه فائدة لهم في دينهم خاصة، فمهمّة الرسل صلوات الله عليهم هو إبلاغ الرسالة، و تبيان الطرق الصحيحة، و توجيه الناس إلى ما فيه خيرا لهم في دينهم و دنياهم، من هنا كانت الإجابة بهذه الطريقة تفتح لهم ملكة التطلع، كما أن

²⁰⁵ - سيد قطب- "في ظلال القرآن"- 181/2.

²⁰⁶ - السيد الجميلي- "الإعجاز العلمي في القرآن"- شركة الشهاب- الجزائر- ص24.

²⁰⁷ - سورة يونس- الآية 06.

²⁰⁸ - السيد الجميلي- "الإعجاز العلمي في القرآن"- ص24.

وروده في القرآن هكذا يلفت الانتباه و يجعل الباحث يتوقف عند هذه الآية، و يسأل نفسه عن سبب صرف السائل عن حقيقة سؤاله.

- و مثال آخر عن مراعاته عزّ و جلّ المستوى الذهني لدى الناس قوله:

﴿يَسْأَلُونَكَ مَنِ الْخَمْرُ وَ الْمَيْسِرُ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾²⁰⁹.

فالسؤال هنا كان عن حكم الخمر و الميسر أهو حرام أم حلال، و لكن لما كان الناس آنذاك على غير استعداد بترك الخمر، أراد الله عزّ و جلّ أن ينفّرهم عنها تدريجياً حتى يعلموا فسادها و أضرارها، و ما زال العلم حتى الآن يكشف عن أضرارها.

« فترول القرآن الكريم تدرّج في تربية الأمة الإسلامية، تدرجا فطريا لإصلاح النفس البشرية، و استقامة سلوكها و بناء شخصيتها، و تكامل كيانها، حتى استوت على سوقها، و آتت أكلها الطيب بإذن ربّها لخير الإنسانية كافة »²¹⁰.

فالله عزّ و جلّ عالم بأحوال عباده، من هنا أخفى عنهم أمر الأهلة، كما أنه لم يتزل حكم تحريم الخمر مباشرة، بل انتظر الوقت المناسب، يقول أحمد شامية: « إنّه القرآن المعجز يرتبط بالحاضر، و لا يخالف الماضي و يوافق المستقبل، فكم من آية و آية لم يتضح معناها بدقّة إلا بعد تقدّم العقل البشري، و تطور العلم الإنساني، إذ لم يكن ما ينفع من فهمها في العصر الذي نزل فيه القرآن حتى لا يكون القرآن في واد، و الناس و الحياة في واد آخر »²¹¹.

هنا نلمس الغرض من استعمال أسلوب الحكيم في هذه الآيات الكريمة،

فالمقام

²⁰⁹ - سورة البقرة- الآية 219.

²¹⁰ - مناع قطان- "مباحث في علوم القرآن"- ص112.

²¹¹ - أحمد شامية- "خصائص فن العربية و الإعجاز القرآني"- ص25.

لم يكن مناسباً لإخبارهم بما طلبوا، و اقتضت أن يخبرهم بما لم يطلبوه لمنفعتهم قبل كل شيء.

الأعمال بالنيات:

إن ظاهرة الأسئلة في القرآن الكريم توحى بيقظة العقيدة و استيلائها على نفوس الجماعة المسلمة، و هي دليل على رغبة المؤمنين في معرفة حكم العقيدة في كل شأن من شؤون حياتهم اليومية، و لما كان خوفهم و قلقهم -أقصد الصحابة- بارز إثر أي عمل يقدمونه حتى يطابقوا بين تصرفهم و حكم العقيدة، يطمئنهم عزّ و جلّ بتبيانه أن الأعمال بالنيات، و أن كل عمل أخلص لوجهه عزّ و جلّ فهو مقبول و مأجور عليه.

قال عزّ و جلّ: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِللَّذِينَ وَ

الْأَقْرَبِينَ وَ الْيَتَامَى وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ﴾.²¹²

فقوله عزّ و جلّ: ﴿مِنْ خَيْرٍ﴾ دليل على أنه لا أهمية لمقدار الإنفاق، و إنما الأهمية فيمن أصيبت، فالأهم هو كون الإنفاق فيه خيراً، فالإنفاق تطهير للقلب، و تزكية للنفس، ثم منفعة للآخرين، و عون و تحريّ الطيب و النزول عنه للآخرين هو الذي يحقق للقلب الطهارة، و للنفس التزكية و للإيثار معناه الكريم، فالإيحاء هنا في هذه الآية يعالج تطويع النفس لبذل ما هو خيراً، و التحبيب فيه على طريقة القرآن في تربية النفوس و إعداد القلوب.²¹³

نشر المحبة و العدل بين الناس:

هذا البعد من الأبعاد النفسية التي كثيراً ما اشتمل عليها القرآن العظيم، من الآيات التي نلمس فيها هذا البعد، الآية السابقة و التي سألوا فيها عن الإنفاق.

²¹² - سورة البقرة- الآية 215.

²¹³ - سيد قطب- "في ظلال القرآن"- 221/2.

إن طريق الإنفاق في الآية يربط بين طوائف من الناس، بعضهم تربطه بالمنفق رابطة الرحم، و بعضهم رابطة الرحمة، و بعضهم رابطة الإنسانية الكبرى في إطار العقيدة، و نجد أيضا في هذه الآية ترتيبا لمن يجب فيهم الإنفاق، هذا الترتيب يبين بمنهج الإسلام الحكيم البسيط في تربية النفس الإنسانية و قيادتها « إنه يأخذ الإنسان كما هو، بفطرته و ميوله الطبيعية و استعداداته ثم يسير له من حيث هو كائن ». 214

فإنفاق الفرد على أهله ينشر المحبة بين أفراد العائلة و يجعلها متكاملة، من أجل هذا نبه عزّ و جلّ إلى هذا الأمر، و أنه أهم من معرفة مقدار أو نوعية الإنفاق، فالهدف أسمى من ذلك.

- و مما نلمس فيه كذلك حثّه عزّ و جلّ على المحبة و العدل بين الناس قوله عزّ و جلّ حين سألوا عن الأنفال: ﴿يَسْأَلُونَكَ مَنِ الْأَنْفَالُ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ فَأَتَقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا ذَاتَهُ بَيْنَكُمْ﴾ 215.

و قد نزلت هذه الآية بعد أن ساءت أخلاق الصحابة في قسمة الغنائم، و الحل كان أن نزعه الله عزّ و جلّ من بين أيديهم و جعله لرسول الله -صلى الله عليه و سلم- فقسمه بين المسلمين على السواء، و كان في ذلك تقوى الله، و طاعة رسوله، و إصلاح ذات بينهم، فالقسمة كانت بين الجميع سواء كانوا مجاهدين أو شيوخا عند الرّيات، فلا يستأثر أحد عن الآخر، و بذلك يضمن العدل و التّحاب و التصافي بين المسلمين، ثم يأمرهم عزّ و جلّ بتقواه، و إصلاح ذات البين ذلك أن تقوى الله هو ما يضمن اتحاد المسلمين، و تآسيهم، و مساعدة بعضهم بعضا. 216

214- نفسه- 221/2.

215- سورة الأنفال- الآية 1.

216- الزمخشري- "الكشاف"- 141/2.

ثم بين لهم أن أمر الغنائم تافه بالنسبة للأجر الكبير عند الله تعالى، و أن أمر هذه الواقعة أكبر بكثير حيث جعلها فرقانا في مجرى التاريخ البشري، فسميت "يوم الفرقان"، "يوم التقى الجمعان"، كذلك أراد أن يعلمهم أن هذا الأمر عظيم إنما تم بتدبير الله و قدره في كل خطوة.²¹⁷

هذا البعد الذي ذكرناه هو بعد نفسي و اجتماعي بين علاقة الفرد بربه، بامثال أمره حين بين لهم أمر الإنفاق و الأنفال، و كذا علاقة الفرد مع غيره بنشر العدل و المحبة بينهم، «و من الواجب أن نعرف أبعاد الإسلام النفسية و الاجتماعية، إن هذا الدين يتكون من سبعين شعبة، تطوي في دائرتها الأرض و السماء، و تحدّد للإنسان علاقته بربه و نفسه و أسرته و مجتمعه كله، و تحدثه عن جملة العقائد و العبادات و الأخلاق و المعاملات و الأحكام التي يلتزمها و الشعائر التي يرفعها».²¹⁸

من هنا تنوعت و تعددت الأبعاد في الآيات التي ورد فيها أسلوب الحكيم، فمنها ما خصّت العقيدة كالإيمان بالغيب، و إثارة ملكة التطلع... و منها ما خصّت المعاملات كالإنفاق، و الأنفال و الخمر، و قد توجد أبعاد أخرى لم نستخرجها، فالقرآن الكريم كلّ أهداف و غايات على المرء أن يعرفها في كل آية يقرؤها، فالله عزّ و جلّ كلما أصدر حكماً أو أمر أمراً، أو نهى عن شيء أو أخفى آخر، فإنما وراء ذلك حكمة لا بد من الوقوف عليها حتى ندرك قيمة كلامه عزّ و جلّ و عظمته.

²¹⁷ - سيد قطب - "في ظلال القرآن" - 1463/9.

²¹⁸ - محمد الغزالي - "المحاور الخمسة للقرآن الكريم" - ص 127.

III - خصائصه الأسلوبية في القرآن الكريم:

لقد اتفق جلّ البلاغيين على أن أكبر معجزة للقرآن الكريم خصّصت طريقة نظمه، و يتكامل في النّظم عنصران هما النحو و البلاغة، فالنحو و البلاغة عنصران متلاحمان في اللغة بهما نفهم طبيعتها، و ندرك أسرارها، و بهما يعرف سر الإعجاز في القرآن الكريم، و يعني ذلك أن بلاغة القرآن الكريم الخارقة و قوة بيانه المثلى تتجلى في نظمه وفق قوانين النحو، و خصائص العربية بطريقة يعجز البشر عن مجاراتها.²¹⁹

فالقرآن الكريم و إن جار النّهج العربي المؤلف من حيث الحروف و المفردات و الجمل و القواعد، فقد انفرد بأسلوبه الفذ، و مذهبه الكلامي الفريد.²²⁰

و إن كان تفرد القرآن الكريم عن سائر كلام البشر بأسلوبه المتميّز، فإن لألفاظه المفردة دور كبير في تميّزه أيضا، فالمفردة القرآنية اختصت بمميّزات جعلتها تحمل دلالات حكيمة و عميقة فهي موحية.

لهذا سنحاول أن نتذوق بعض جماليات المفردات القرآنية التي وردت في الآيات التي تخصنا في هذا الصدد، ثم نتطرق إلى بعض الخصائص الأسلوبية بصفة عامة.

1) المفردة القرآنية:

تتماز المفردة القرآنية بمميّزات ثلاث رئيسية:²²¹

- جمال وقعها في السمع؛
- اتساقها الكامل في المعنى؛
- اتساع دلالاتها لما لا تتسع له عادة دلالات الكلمات الأخرى.

²¹⁹ - أحمد شامية- "خصائص العربية و الإعجاز القرآني" - ص148.

²²⁰ - محمد صالح الصديق- "البيان في علوم القرآن"- المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر- 1989م- ص234.

²²¹ - بكرى شيخ أمين- "التعبير في القرآن الكريم"- ص188.

هذا بالنسبة للمفردة في القرآن الكريم بصفة عامة، أما عن الآيات التي ورد فيها أسلوب الحكيم فمن الكلمات الموحية ما يلي:

- كلمة "مُوقِنِينَ" في قوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُتُمْ

222. مُوقِنِينَ﴾.

فموقنين اسم فاعل من يقن، و اليقين معناه العلم، و زوال الشك، فهذه الكلمة ترادف عالمين، و لكنّها أقوى منها و أعمق، و استعملت هنا لأن الإيمان بالله أمر لا بد من التيقن منه، قال الزمخشري حول هذا المعنى: «فإن قلت: ما معنى قوله ﴿إِنَّ كُنُتُمْ مُوقِنِينَ﴾ و أين عن فرعون و ملته الإيقان؟ قلت معناه إن كان يرجى منكم الإيقان الذي يؤدي إلى النظر الصحيح نفعمكم الجواب، و إلا لم ينفع، أو إن كنتم موقنين بشيء قط فهذا أولى ما توقنون به، لظهوره و إنارة دليله». 223.

- و من الكلمات التي نلمس لها سر في توظيفها في موضع معين، كلمة "يخلق"

في قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾²²⁴، و كلمة "يفعل" في قوله عزّ و جلّ: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾²²⁵.

فكلمة "يخلق" تتناسب مع المقام الذي هو منح مريم غلاما دون أب، و كذلك "يفعل" تتناسب مع المقام في الآية الثانية، و هو منح زكريا ابنا على كبر سنّه، فالأمر الثاني على الرغم أنّه ليس من المؤلفات، إلا أنه لا يصل إلى معجزة الأمر الأول، من أجل هذا عبّر عن الأمر الأول بالفعل "خلق" دليل على إنشائه و

222- الشعراء- ص24
223- الزمخشري- "الكشاف"- 229/3.
224- سورة آل عمران- الآية 47.
225- سورة آل عمران- الآية 40.

تكوينه من غير الأسباب المعهودة، يقول الطاهر بن عاشور في تفسيره: « و عبّر عن تكوين الله لعيسى بفعل يخلق لأنه إيجاد كائن من غير الأسباب المعتادة لإيجاد مثله، فهو خلق أنف غير ناشئ عن أسباب إيجاد الناس، فكان لفعل يخلق هنا موقع متعين، فإن الصانع إذا صنع شيئاً من مواد معتادة لا يقول خلقت، و إنما يقول صنعت! ». 226

- و من المفردات التي تستوقفنا في هذا الصدد كلمة "ذات"، في قوله عزّ و جلّ: ﴿وَ أَصْلَحُوا ذَاتَهُ بَيْنَكُمْ﴾ 227 في آية الأنفال.

و "ذات" يجوز أن تكون مؤنث "ذو" الذي هو بمعنى صاحب، فتكون ألفها مبدلة من الواو، كما يجوز أن تكون "ذات" أصلية الألف كما يقال: أنا أعرف ذات فلان، فالمعنى حقيقة الشيء و ماهيته.

فـ"ذات" هنا كلمة مقحمة لتحقيق الحقيقة، جعلت مقدمة، و حقها التأخير لأنها للتأكيد مثل: المعنى في قولهم جاءني بذاته، و منه صار المعنى أصلحوا حقيقة بينكم، و يبدو أن هذا الاستعمال -ذات البين- من مبتكرات القرآن. 228

- و من الكلمات التي تتسع دلالاتها كلمة "كتاب" في قوله عزّ و جلّ:

﴿مَلِمَهَا مِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَ لَا يَنْسَى﴾ 229.

فهنا يحتمل أن يكون الكتاب مجازاً في تفصيل العلم تشبيهاً له بالأمر المكتوبة، و أن يكون كناية عن تحقيق العلم، لأن الأشياء المكتوبة تكون محققة. 230

226- الطاهر بن عاشور- "تفسير التحرير و التنوير"- 249/3.

227- سورة الأنفال- الآية 01.

228- الطاهر بن عاشور- "تفسير التحرير و التنوير"- 253/9.

229- سورة طه- الآية 52.

230- الطاهر بن عاشور- "تفسير التحرير و التنوير"- 249/3.

هذه الكلمات التي ذكرناها تحققت فيها خصائص جعلتها تؤثر في المعنى أولاً، و في أسلوب الآيات ثانياً، إذ أن لها وقع خاص، و تحمل معاني عميقة، كما أنها تتسع دلالاتها.

(2) خصائص أسلوبية عامة:

نحاول في هذا العنصر أن نستجلي بعض الخصائص الأسلوبية، و أن نتذوق جماليتها في المعنى.

أ. الجملة الاسمية و الفعلية:

الجملة في تعريف النحاة هي الكلام الذي يتركب من كلمتين أو أكثر و له معنى مفيد مستقل، و الجملة العربية نوعان لا ثالث لهما: جملة اسمية و جملة فعلية²³¹. و تحمل الجملة الاسمية تأكيداً في معناها على عكس الجملة الفعلية²³². أكثر الجمل التي وردت في الآيات التي كانت على طريقة أسلوب الحكيم هي اسمية.

* الجمل الاسمية:

- قال الله تعالى للملائكة حين سألوها عن سبب خلقه بشراً: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾²³³، هذه الجملة اسمية تفيد التأكيد، و المقام هنا يتطلب التأكيد ذلك أن الله عزّ و جلّ ذكر الملائكة بعلمه المطلق، و حكمه الخفية، و أرادهم أن لا ينسوا ذلك فلا يضطرون للسؤال مرّة أخرى، ثم إن هذا المعنى و هو العلم بالغيب يناسبه التأكيد في كل موضع، و الإجابة و إن كانت حين سأل الملائكة، إلا أنها موجّهة إلينا جميعاً حتى نرجع إليها كلّما انتابنا الفضول.

²³¹ - عبده الراجحي- "التطبيق النحوي" - دار النهضة العربية-بيروت-1988- ص77.

²³² - ابن الأثير- "المثل السائر" - 51/2.

²³³ - سورة البقرة- الآية 30.

- قال عزّ من قائل: ﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَقَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَ

أَمْرَاتِي لَمَّا قَدَرْتُ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾²³⁴.

فقوله ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ جملة اسمية تفيد التأكيد تناسبا مع المقام، فموضوع الآية هو قدرته عزّ و جلّ على كل شيء، و هذا أمر لا بد من التيقن منه، و عدم الشكّ فيه.

- و الأمر يتشابه في قوله عزّ و جلّ ردّا على مريم بنت عمران: ﴿كَذَلِكَ

اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾²³⁵، فهذا الموضوع أيضا يتطلب التأكيد لأن قدرته عزّ و جلّ لا تكمن في معجزة الخلق من غير أب فقط، و إنما في قدرته الشاملة كل شيء، من أجل هذا كان الجواب بذكر اسمه عزّ و جلّ أولا.

فأغلب الجمل التي ورد فيها أسلوب الحكيم هي اسمية تفيد التأكيد، و إنّما اقتصرنا على هذه الجمل الثلاثة لعدم وجود مشاكلة بين السؤال و الجواب من ناحية التركيب، أي كون السؤال جملة فعلية، و الجواب جملة اسمية مما يخفي وراءه سرّ، و «الأصل في الجواب أن يكون مشاكلا للسؤال، فإن كان جملة اسمية فينبغي أن يكون الجواب كذلك»²³⁶.

* الجملة الفعلية:

- قال عزّ و جلّ: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، قُلْ لَا

أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾²³⁷.

فقوله عزّ و جلّ ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾: جملة فعلية تفيد التجدد، فالرسول الكريم يجيبهم بأنه لا يملك لنفسه ضرا و لا نفعا، و هذا الأمر

²³⁴ - سورة آل عمران- الآية 40.

²³⁵ - سورة آل عمران- الآية 47.

²³⁶ - جلال الدين السيوطي- "الإتقان في علوم القرآن"- 576/2.

²³⁷ - سورة يونس- الأيتين 48-49.

مستمر عنده، فمهما اعترضه من مرض أو صحة أو نفع، فهو عاجز عن معرفتها إلا ما شاء الله، و هو استثناء منقطع، أي إلا ما أرادني الله أن أعرف، فكيف أملك علم الساعة، و هو أمر أقصره الله في علمه.²³⁸

ب. الخبر و الإنشاء:

الخبر ما احتمل الصدق و الكذب، فإن طابق الواقع فهو صادق، و إن خالفه فهو كاذب، و هو مبني على الحكاية و يقصد به الإخبار و الإعلام بمضمون الجملة الخبرية، و بجانب هذا الأسلوب الخبري، توجد الأساليب الإنشائية التي يقصد بها إنشاء الكلام و إيجاد ابتداء، فليس الهدف منها الإعلام.²³⁹

إذا ما نظرنا إلى الآيات التي كانت على طريقة أسلوب الحكيم، فإننا نجد كلها خبرية، فالله عزّ و جلّ كان يملي على الأنبياء ما يجب قوله، و هذا مناسب للمقام، فميزة السائل هو رغبته في الاستعلام و الاستطلاع، و منه كان الجواب بإخبارهم ما يجب أن يعرفوه، و إن لم يتطلّبوا تلك الإجابات.

كما أنه يلقي الخبر إما خاليا من مؤكّدات إذا كان المتلقي خالي الذهن منه غير منكر له، أو بمؤكّدات إذا كان شاكا و منكرا له كل حسب حالته، و قد يخرج عن هذا الأصل، فيتزل خالي الذهن مترلة المتردد أو العكس.²⁴⁰

و قد ألقى الخبر ابتداءيا عندما ردّ الله عزّ و جلّ على أسئلة الصحابة عن حكم الخمر و الإنفاق و الأنفال، و قد ألقى هكذا لأن الموقف لا يحتاج إلى تأكيد، فالسائلون هم أناس تقاة يخافون الله عزّ و جلّ، و هم مستعدّون لتطبيق أي أمر، و منه لم يوجد داعي لتأكيد الأمر لهم.

²³⁸ - الزمخشري - "الكشاف" - 240/2.

²³⁹ - بسبيوني عبد الفتاح لاشين - "علم المعاني" - ص 281.

²⁴⁰ - نفسه - ص 41/39.

- كما أننا نجد حرج عن مقتضى ظاهره، فتزل غير المنكر منزلة المنكر في قوله ردًا على الملائكة: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾²⁴¹، فالملائكة لم يكونوا شاكين في أي خبر من الله تعالى ليلقى الخبر إليهم مؤكداً، فهم يسبحون له ليلاً و نهاراً، إلا أنه ألقى كذلك، لأن المعنى الذي حملة لا يحتمل النقاش فلا بد من الاطمئنان إلى مشيئة الله.

- و مما نزل فيه المنكر منزلة غير المنكر:

في قوله عزّ و جلّ: ﴿رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّ كُنُوتَهُ مُوقِنِينَ﴾²⁴²، أنزل المنكر منزلة غير المنكر، فالسائل و هو فرعون جاحد منكر لوجود الله أساساً، فهو يسأل في استهزاء و سخرية عن ماهية الله عزّ و جلّ، و لكن مع هذا ورغم كون الموقف موقف إنكار إلا أن سيدنا موسى يجيب بكلّ بساطة أن الله هو رب السماوات و الأرض بدون تأكيد الأمر، و هذا راجع إلى كون الأدلة ساطعة و البراهين قاطعة تؤكد وجوده عزّ و جلّ و وحدانيته.

و الأمر لا يختلف في قوله عزّ و جلّ: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى، قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾²⁴³.

- و أيضاً في قوله: ﴿وَ ضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَ نَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُعْطِي الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ، قُلْ يُعْطِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾²⁴⁴، فالخبر ألقى بكلّ بساطة خالي من أية مؤكّدات فهو يحمل في ذاته منطوقاً عقلياً لا يقبل القدرح. أما بالنسبة للإنشاء فلم يرد في الإجابات، و إنما ورد عندما أمر الله عزّ و جلّ رسله بما يجب قوله، فأغلب الآيات كانت بصيغة يسألونك ← قل، و قد أعطت هذه الصيغة إيقاعاً مميزاً للآيات.

²⁴¹ - سورة البقرة- الآية 30.

²⁴² - سورة الشعراء- الآية 24.

²⁴³ - سورة طه- الآيتين 49-50.

²⁴⁴ - سورة يس- الآيتين 78-79.

ج. التقديم و التأخير:

إن التقديم و التأخير موضوع نحوي بلاغي، و قد اكتفى النحاة بقول أن سبب التقديم هو العناية، غير أن البلاغيين يرون غير ذلك، قال عبد القاهر الجرجاني « وقد وقع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال إنه قدم للعناية و لأن ذكره أهم، من غير أن يذكر من أين كانت لك العناية؟، و بمَ كان أهم؟، و لتخيلهم ذلك قد صغر أمر التقديم و التأخير في نفوسهم و هونوا الخطب فيه حتى أنك لترى أكثرهم يرى تتبعه، و النظر فيه ضرباً من التّكلف، و لم ترظنا أزرى على صاحبه من هذا و شبهه ». ²⁴⁵

و يرى ابن الأثير أن التقديم و التأخير ضربان: الأول يختصّ بدلالة الألفاظ على المعاني، و لو آخرّ المقدم أو قدم المؤخر لتغير المعنى، و الثاني يختص بدرجة التقدم في الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك و لو آخر لما تغير المعنى، و من الضرب الأول تقديم المفعول على الفعل، و تقديم الخبر على المبتدأ، و تقديم الظرف أو الحال أو الاستثناء على العامل، و الضرب الثاني يختص بدرجة التقدم في الذكر لاختصاصه بما يوجب له ذلك، فإنه مما لا يحصره حد و لا ينتهي إليه شرح. ²⁴⁶

- من الآيات التي نجد فيها تقديماً من الضرب الأول قوله عزّ و جلّ: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ ²⁴⁷، ففي هذه الآية نجد تقديم الخبر الذي هو شبه جملة جار و مجرور "فيهما" على المبتدأ الذي هو إثم، و التعبير بهذه الطريقة كان أبلغ، لأنّه بدا و كأن الإثم الكبير و المنافع مقصور على الخمر و الميسر أكثر من أي شيء آخر.

²⁴⁵ - عبد القاهر الجرجاني - "دلائل الإعجاز" - ص 108.

²⁴⁶ - ابن الأثير - "المثل السائر" - 43-35/2.

²⁴⁷ - سورة البقرة - الآية 219.

و في قوله عزّ و جلّ: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾²⁴⁸،
يمكن أن تكون كلّ مفعول به أول، و المعنى يكون أعطى كل شيء شكله، أو
كل مفعول به ثان و منه حدث تقديم على المفعول الأول، و المعنى يكون أن الله
عزّ و جلّ أعطى خلقه كل ما يحتاجونه.

يقول القرطبي و المعنى هذا يحتمل وجهان: إما أنه أعطى خليقته كل شيء
يحتاجون إليه، و يرتفقون به، أو أنه أعطى كل شيء صورته و شكله الذي يطابق
المنفعة المنوطة به.²⁴⁹

أما إذا قدّمت خلقه على كل شيء احتمل المعنى وجهها واحدا، و هنا
تظهر فائدة التقديم و التأخير.

- و نلاحظ أنه في أغلب الآيات التي كانت على طريقة أسلوب الحكيم
تقدّم المسند إليه، و هذا أمر طبيعي، فـ « مرتبة المسند إليه أصلا التقديم، فهو
الذي نفكر فيه أولا، و على أساسه نبني الحكم، و نشكل الخير، و لا نستطيع أن
نحكم إلا إذا عرفنا ما نحكم عليه ».²⁵⁰

و مع هذا فإن تقدمه له أغراض بلاغية منها: لفت النظر إلى أهميته، تعجيل
المسرة، تعجيل المساءة، التشويق، التلذذ، التخصيص.²⁵¹

- ففي قوله عزّ و جلّ: ﴿قُلْ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾²⁵²، لفت النظر إلى
أهمية أمر الرّوح العظيم.

²⁴⁸ - سورة طه- الآية 50.

²⁴⁹ - القرطبي- "الجامع لأحكام القرآن"- 137/11.

²⁵⁰ - دبرزه سقال- "علم البيان بين النظريات و الأصول"- دار الفكر العلمي- لبنان-1997م-ص77.

²⁵¹ - نفسه، الصفحة نفسها.

²⁵² - سورة الإسراء- الآية 85.

و مما نجد فيه تشويقاً بذكر المسند إليه، قوله عزّ و جلّ: ﴿رَبَّنَا الَّذِي
أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾²⁵³، ففي هذه الآية تشويق إلى معرفته عزّ و جلّ
من خلال النظر في ملكوته.

كما نجد تخصيصاً في قوله: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾²⁵⁴، ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ
يَفْعَلُ

مَا يَشَاءُ﴾²⁵⁵، ذلك أن هذين الفعلين و هما الخلق من غير أب، و تكوين الابن من
الشيخ الفاني مقصور عليه فقط و على قدرته عزّ و جلّ.

- أما عن الضرب الثاني، فالأمثلة كثيرة، نحاول أن نبحث في بعضها:

ففي قوله تعالى مثلاً: ﴿قُلْ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَطِيعُوا ذَاتَهُ
بَيْنَكُمْ﴾²⁵⁶، فهنا نلاحظ تقديم تقوى الله على إصلاح ذات البين، فلو قيل
فأصلحوا ذات بينكم و اتقوا الله لكان المعنى واحداً، غير أنه توجد نكتة لهذا
الترتيب، و هو أن تقوى الله أمر لا بد منه، حتى إذا اكتمل في نفوسنا صار أمر
إصلاح ذات البين أمراً ميسوراً، فتقوى الله أصل و سبب لجميع أعمال الخير التي
نقوم بها.

- و في قوله عزّ و جلّ: ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَ لَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ
﴾²⁵⁷، في هذه الآية نجد تقديم الضر على النفع، و حول هذا يقول سيد قطب:
« و قد قدم ذكر الضر هنا، و إن كان مأموراً أن يتحدّث عن نفسه، لأنهم هم
يستعجلون الضر، فمن باب التناسق قدّم ذكر الضر، أما في موضع آخر في سورة

²⁵³ - سورة طه- الآية 50.

²⁵⁴ - سورة آل عمران- الآية 47.

²⁵⁵ - سورة آل عمران- الآية 40.

²⁵⁶ - سورة الأنفال- الآية 01.

²⁵⁷ - سورة يونس- الآية 49.

الأعراف، فقدم النَّفْع في مثل هذا التعبير لأنه الأنسب أن يطلبه لنفسه، و هو يقول: و لو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير و ما مسّني السوء».²⁵⁸

- و في قوله عزّ و جلّ عن الخمر: ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنَافِعٌ لِلنَّاسِ وَ إِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾²⁵⁹، في هذه الآية قدم إثم الخمر على المنافع، و في هذا تناسق مع ما جاء في آخر الآية، و هو أن الإثم أكبر من المنافع، ثم لما كانت منافع الخمر و الميسر قليلة جدا بالنسبة لأضرارهما قدم الإثم حتى يكون راسخا في الذهن، و قارعا للأذن كلما قرأنا هذه الآية.

فإثم الخمر و الميسر يخصّ الدّين أكثر و منافعهما هي دنيوية من حيث إن فيها نفع للبدن و تهضم الطعام، و لذة الشدة المطربة، و كذلك بيعها و الانتفاع بثمنها، و لكن هذه المصالح لا توازي مضرّته و مفسدته الرَّاجحة لنعلّقها بالعقل و الدّين.²⁶⁰

د.الذكر المذموم :

*الذكر:

يذكر المسند إليه لأسباب منها إحضاره في ذهن السامع لقلة الاعتماد بالقرائن أو للتنبية على غباوة السامع أو لزيادة الإيضاح و التقرير، أو لأن في ذكره تعظيما للمذكور.²⁶¹

ففي قوله: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَمَّطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾²⁶²، ﴿كَذَلِكَ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾²⁶³،... تعظيم لشأن المسند إليه، و هو الله عزّ و جلّ. كذلك في قوله: ﴿الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾²⁶⁴، تعظيم لأمر الرّوح.

²⁵⁸ - سيد قطب- "في ظلال القرآن"- 1797/11.

²⁵⁹ - سورة البقرة- الآية 219.

²⁶⁰ - ابن كثير- "تفسير القرآن العظيم"- 372/1.

²⁶¹ - السكاكي-مفتاح العلوم"- ص77.

²⁶² - سورة طه- الآية 50.

²⁶³ - سورة آل عمران- الآية 47.

- و يذكر المسند لأغراض بلاغية أيضا من بينها إذا كان المسند في معرض الرد على المخاطب²⁶⁵، منه قوله عزّ و جلّ: ﴿قُلْ يُخَيِّبُهَا اللَّهُ أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَ هُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ﴾²⁶⁶.

كما نجد ذكر الله عزّ و جلّ قبل الرسول -صلى الله عليه و سلم- في آية الأنفال: ﴿قُلْ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ﴾²⁶⁷، مع أن تقسيمها يكون من طرف الرسول -صلى الله عليه و سلم-، غير أن ذكر الله عزّ و جلّ كان لفوائد، يقول الطاهر بن عاشور: « و عطف " و للرسول" على اسم الله لأن المقصود: الأنفال للرسول -صلى الله عليه و سلم- يقسمها، فذكر اسم الله قبل ذلك للدلالة على أنها ليست حقا للغزاة، وإنما هي لمن يعينه الله بوحيه، فذكر اسم الله لفائدتين، أولا هما: أن الرسول إنما يتصرف في الأنفال بإذن الله توقيفا أو تفويضا، و الثانية لتشمل الآية تصرف أمراء الجيوش في غيبة الرسول أو بعد وفاته -صلى الله عليه و سلم- لأن ما كان حقا لله كان التصرف فيه لخلفائه». ²⁶⁸

و نجد في قوله عزّ و جلّ عند سؤالهم عن الأهلة تخصيصا للحج، قال الله عزّ و جلّ: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِبَتُهُ لِلنَّاسِ وَ الْحَجِّ﴾²⁶⁹، فالمعنى يكون تاما إذا حذفت كلمة الحج، ذلك أن كلمة مواقيت عامة تشمل جميع ما يدخل في حياة البشر غير أن تخصيصها هنا يذل على أهميتها الخاصة.

²⁶⁴ - سورة الإسراء- الآية 85.

²⁶⁵ - السكاكي- "مفتاح العلوم- ص81.

²⁶⁶ - سورة يس- الآية 79.

²⁶⁷ - سورة الأنفال- الآية 01.

²⁶⁸ - الطاهر بن عاشور- "تفسير التحرير و التنوير"- 251/9.

²⁶⁹ - سورة البقرة- الآية 189.

قال القرطبي: «أفرد سبحانه الحجّ بالذكر لأنه مما يحتاج فيه إلى معرفة الوقت، وأنه لا يجوز النسيء فيه عن وقته، بخلاف ما رأته العرب فإنها كانت تحجّ بالعدد، وتبدّل الشهور، فأبطل الله قولهم و فعلهم»²⁷⁰.

***الحذف:**

و هناك أحوال تقتضي طي المسند إليه، منها ضيق المقام، أو الاحتراز عن العبث بناء على الظاهر، و إما لتخيل أن في تركه تعويلا على شهادة العقل، و في ذكره تعويلا على شهادة اللفظ.²⁷¹

ففي قوله عزّ و جلّ: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾²⁷²، حذف المسند إليه بعد هدى، و الغرض هنا في تركه تعويل على شهادة العقل، و الدليل على هذا تعدد آراء المفسّرين، فمنهم من يقول أن هدى أي عرف كيف يرتفق بما أعطى، و هناك من يقول هدى معناه كتب الأعمال و الآجال و الأرزاق للخلائق، و هناك من يقول هدى بمعنى أعطى كل شيء زوجه من جنسه ثم هداه إلى منكحه و مطعمه.²⁷³

كما أن في حذف الزيادات إيجاز، و نرى في أغلب الأجوبة التي ذكرناها هذا الإيجاز، مثل قوله عزّ و جلّ: ﴿كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾²⁷⁴. ﴿وَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾²⁷⁵.

هـ. الفصل و الوصل:

²⁷⁰ - القرطبي- "الجامع لأحكام القرآن"- 229/1.

²⁷¹ - السكاكي- "مفتاح العلوم"- ص76.

²⁷² - سورة طه- الآية 50.

²⁷³ - أنظر: الكشاف- 539/2- تفسير القرآن العظيم- 66/4- الجامع لأحكام القرآن-137/1.

²⁷⁴ - سورة آل عمران- الآية 40.

²⁷⁵ - سورة البقرة- الآية 30.

يعدّ الفصل و الوصل من أصعب المواضيع و أدقّها في البلاغة العربية، و من أهدافه تصوير الهيئة المنفصلة و الهيئة المتّصلة، و الهيئة هي الحال التي يكون عليها صاحبها حين وقوع الحدث الأصلي.²⁷⁶

لفصل الكلام مقتضيات عدة منها فصله لكامل انقطاعه أو كمال اتصاله، فقد يفصل الكلام إذا أريد قطع الجملة الثانية عن الأولى، و ذلك لكون الكلام السابق حكم و أنت لا تريد أن تشركه الثاني في ذلك فتقطع و يسمى "قطعاً"، أو أن يكون الكلام السابق بفحواه كالمورد للسؤال فتترل ذلك مترلة الواقع، و يطلب الثاني وقوعه جواباً فيقطع عن الكلام السابق لذلك، و يسمى استئنافاً.²⁷⁷

جميع الأسئلة التي ذكرناها الجواب فيها كان بـ"قل" أو "قال"، فتلك الجمل فصلت عن سابقتها، و السبب في ذلك هو كونها بمثابة إجابة عن سؤال مقدّر في الجملة الأولى، كما في قوله عزّ و جلّ: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَ مَا رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ رَبِّ السَّمَاوَاتِ وَ الْأَرْضِ وَ مَا بَيْنَهُمَا إِنَّ كُنُتُمْ مُوقِنِينَ﴾²⁷⁸، فإن الفصل في هذا بناء على أن السؤال الذي يستصعبه تصوّر مقام المقاومة من نحو، فماذا قال موسى؟ فماذا قال فرعون؟²⁷⁹

و كذلك في قوله: ﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمَا يَا مُوسَى، قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أُنْزِلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ تَلْوِينًا وَ قُلُوبًا فَغَلَبْتَهُمْ بِذَلِكَ إِنَّهُمْ كَانُوا لَمِنَ الْكٰفِرِينَ﴾²⁸⁰، و أيضاً قوله إجابة لمريم: ﴿كَذٰلِكَ يَخْلُقُ اللّٰهُ مَا يَشَاءُ﴾²⁸¹، و قوله لزكريا: ﴿كَذٰلِكَ اللّٰهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾²⁸²، فهذه الجمل فصلت لأنها بمثابة إجابة عن سؤال مقدّر.

²⁷⁶ - منير سلطان- "الفصل و الوصل في القرآن الكريم"- منشأة المعارف- الاسكندرية- ط2- 1997م- ص109.

²⁷⁷ - نفسه- ص145.

²⁷⁸ - سورة الشعراء- الآيتين 23-24.

²⁷⁹ - منير سلطان- "الفصل و الوصل في القرآن الكريم"- ص45.

²⁸⁰ - سورة طه- الآيتين 49-50.

²⁸¹ - سورة آل عمران- الآية 47.

²⁸² - سورة آل عمران- الآية 40.

- وقد فصلت الجمل الأخرى عن سابقتها لاختلافها خبرا و إنشاء، لفظا
و معنى، فالجمل الأولى كانت خبرية أغلبها بصيغة يسألونك و الإجابة كانت
دائما بالأمر "قل".

الفصل الثالث

أسلوب الحكيم في الحديث النبوي الشريف

أسلوب الحكيم في الحديث النبوي الشريف

تمهيد

موضوعاته في الحديث الشريف

* معاملة الله العباد يوم القيامة

حشر الكافر

رؤية الله عزّ وجلّ

رحمة الله للعباد

* العبادات

الحج

الجهاد

إعداد العمل للساعة

خروج النساء في العيد

أبعاده في الحديث الشريف

الأعمال بالنيات

مراعاة حالة المرأة

تكثير سبل الخير

دفع الناس إلى الاجتهاد

خصائصه الأسلوبية في الحديث الشريف

الخبر و الإنشاء

الإيجاز

أسلوب القصر

الفصل و الوصل

تمهيد:

إن اهتمام العرب بالحديث النبوي الشريف كان كبيرا فهو لا يقل عن اهتمامهم بالقرآن الكريم , و سبب ذلك أنه كان مكملا و مفسرا للقرآن الكريم , فالفقهاء عملوا على استنباط أحكامه , و اللغويون اهتموا بمفرداته و شرحوا غريبه , أما البلاغيون فقد درسوا أسلوبه و تدوقوا جماله الذي صنعه جزالة ألفاظه و سمو معانيه.

فالحديث الشريف ذو مرتبة رفيعة لا يرقى إليها كلام أيّ بشر، فهو في المرتبة الثانية بعد القرآن الكريم، من أجل هذا أردنا أن نعرض لأسلوب الحكيم في الحديث الشريف، و نتلمس أبعاده و جمالياته، فاخترنا صحيح البخاري لاستخراج نماذج منه، لاعتباره أهم مصدر في السنة النبوية الشريفة، قال عبد الله شحاته: « يعتبر صحيح البخاري أول كتاب صنّف في الحديث الصحيح فقط، و قد جمع فيه البخاري 9082 حديثا ». ²⁸³

و لم يكتب الإمام البخاري بأن يعاصر الراوي من يروي عنه، بل أوجب ثبوت لقائه له،— و لو مرة واحدة—، و من هنا قال العلماء: للبخاري شرطان: شرط المعاصرة، و شرط اللقاء، و بمجموع هذه الصفات وصف الأئمة صحيح البخاري قديما و حديثا بأنه أصحّ الكتب المصنّفة في الحديث بل إنه أصحّ كتاب بعد القرآن الكريم. ²⁸⁴

و الحديث في اللغة هو الجديد و ما يقابل القديم، و الحديث في الاصطلاح ما أضيف إلى النبي—صلى الله عليه و سلم— من قول أو فعل أو تقرير

²⁸³ - عبد الله شحاته- "مفتاح السنة"- مطبعة جامعة القاهرة- 1986- ص26.

²⁸⁴ - نفسه- ص28/27.

أو صفة، و هناك من يجعل الحديث عاما، فهو ما أضيف إلى النبي -صلى الله عليه و سلم- أو إلى الصحابة، أو التابعين.²⁸⁵

و بالمنهجية نفسها التي اتبعناها في دراستنا لأسلوب الحكيم في القرآن الكريم نعرض له في الحديث النبوي الشريف، فنبداً بمجالاته ثم أبعاده، و أخيرا خصائصه الأسلوبية.

موضوعاته في الحديث الشريف:

على قلة الأحاديث التي كانت على طريقة أسلوب الحكيم تعددت المواضيع فيها، و عموما فهي تبين العلاقة بين الإنسان و خالقه. لقد حددت هذه العلاقة منذ أن جعل الإنسان خليفة في الأرض فكان واجب الإنسان فيها العبادة و الطاعة، و كان على الخالق الجزاء في الآخرة.

* معاملة الله العباد يوم القيامة:

فرض الله عزّ و جلّ أحكامه على البشر، و أمرهم بالتمسك بها، حتى يسعدوا في دينهم و دنياهم، غير أن كثيرا من الناس زاغوا عن الطريق الذي رسمه لهم، من أجل ذلك جعل الله الجزاء لعباده المؤمنين، و العقاب للكافرين يوم القيامة.

أ. مشر الكافر:

حدثنا شيبان عن قتادة حدثنا أنس بن مالك رضي الله عنه أن رجلا قال: (يا نبيّ الله كيف يُحشَرُ الكافرُ على وجهه؟ قال: أليس الذي أمشاهُ على الرجلين في الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟ قال قتادة: بلى وعزّة ربّنا).²⁸⁶

²⁸⁵- أبو محمد الحسن بن مسعود البغوي- "شرح السنّة"- تحقيق علي محمد معوض- عادل أحمد عبد الموجود-

دار الكتب العلمية- بيروت- 1992- 22/1.

²⁸⁶- عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري- "صحيح البخاري"- دار المعرفة- بيروت- 132/4.

السؤال هنا يحمل استغرابا و تعجبا، و هو إشارة إلى قوله عزّ و جلّ:

﴿ وَ نَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَلَىٰ وَجُوهِهِمْ عُمِيًّا وَ يُكَمَّ وَ صَمًّا ﴾²⁸⁷.

و الجواب كان بتذكيره -صلى الله عليه و سلم- بقوة الله العظيمة التي أمشته أول مرة، و منه وقع أسلوب الحكيم، فالمشي على الوجوه ليس بالأمر العادي إذا ربطناه بحياتنا الدنيوية، و لكنّه لا غرابة في أي أمر يتعلّق بيوم القيامة، فنحن جاهلين أصلا عن أحوال العباد في ذلك اليوم، و مسلمين بكل خبر جاء منه عزّ و جلّ أو من رسوله الكريم.²⁸⁸

و منه كان جوابه -صلى الله عليه و سلم- يحمل علّة منطقية، فالذي خلق الإنسان، و جعله قادرا على المشي على رجليه قادر بطبيعة الحال أن يمشيه على أيّ عضو آخر أراد، و من ذكائه -صلى الله عليه و سلم- أنه ذكره بالمشي على الرجلين، و لم يذكره بشيء آخر، كقوله مثلا: أليس الذي خلقه قادر على أن يمشيه؟...، لأنه كان -صلى الله عليه و سلم- يختار دائما أحسن السبل في التمثيل، و أقربها في البساطة و التأثير، فهو يذكره فقط بنعمة المشي ليترك له أن يقارن و يفكر في غيره من النعم.

و في إجابة السائل بعد سماعه لما قاله الرسول -صلى الله عليه و سلم- دليل على إيمانه بالله و بكل ما أنزله، و السؤال إنما كان فضولا و استغرابا فقط، و ليس إنكارا، و من جوابه أيضا نلمس قوة تأثير كلام النبي -صلى الله عليه و سلم- مع كل متحدث، فهو يقول « بلى و عزّة ربّنا » جزما بصدق قول النبي -صلى الله عليه و سلم- و ما عرفه من القرآن.

²⁸⁷ - سورة الإسراء- الآية: 97 .

²⁸⁸ - بدر الدين أبي محمد العيني- "عمدة القارئ شرح صحيح البخاري"- دار الفكر 105/23.

ب. رؤيته عزّ وجلّ:

عن أبي هريرة قال: (قال أناسٌ يا رَسُولَ اللَّهِ هل نرى رَبَّنَا يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ فقال: هل تُضَارُّونَ فِي الشَّمْسِ لَيْسَ دُونَهَا سَحَابٌ؟ قالوا: لا يا رَسُولَ اللَّهِ، قال هل تُضَارُّونَ فِي الْقَمَرِ لَيْسَ دُونَهُ سَحَابٌ؟ قالوا: لا يا رَسُولَ اللَّهِ، قال: فَإِنَّكُمْ تَرَوْنَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ).²⁸⁹

تضارون: روي بتشديد الراء و بتخفيفهما، و التاء مضمومة فيهما، و معنى المشدّد: هل تضارون غيركم في حالة الرؤية بزحمة أو مخالفة في الرؤية، أو غيرهما لخفائه كما تفعلون أوّل ليلة من الشّهر، و معنى المخفف هل يلحقكم في رؤيته ضير و هو الضّرر.²⁹⁰

و أسلوب الحكيم يتمثل في ردّه -صلى الله عليه و سلم- بسؤال آخر لم يتطلّبوه و هو: «أتضارون برؤية الشمس و القمر...» فسؤال الصحابة كان يقتضي مباشرة إجابة بنعم أو لا، و لكن رغبة منه -صلى الله عليه و سلم- في إسعادهم ساق لهم هذا التشبيه، و إن كان هذا التشبيه يهدف إلى تأكيد أمر هذه الرؤية، إلاّ أنّه في الحقيقة بين كيف تكون هذه الرؤية و هي بدون مشقة و تعب.

فـ «التشبيهات متقاربة و المراد منها و الله أعلم: إنكم سترون ربكم يوم القيامة رؤية محقّقة لا شكّ فيها و لا مشقّة و لا اختلاف، كما ترون هذا القمر، أو هذه الشمس رؤية محقّقة بلا شكّ و لا مشقّة و لا اختلاف».²⁹¹

ج. رحمة الله العباد:

حدّثنا عاصم عن أبي عثمان عن أسامة، قال كان ابن لبعض بنات النبي -صلى الله عليه و سلم- يقضي، فأرسلت إليه أن يأتيها فأرسل: إنّ لله ما أخذ،

²⁸⁹- صحيح البخاري- 140/4.

²⁹⁰- عبد الباري طه سعيد- "أثر التشبيه في تصوير المعنى"- قراءة في صحيح مسلم- 1992- ص52.

²⁹¹- نفسه- ص52.

و له ما أعطى، و كلّ إلى أجل مسمّى فلتصبر و لتحتسب، فأرسلت إليه فأقسمت عليه فقام رسول الله -صلى الله عليه و سلم-، و قمت معه و معاذ بن جبل و أبي بن كعب و عباده بن الصّامت فلما دخلنا ناولوا رسول الله -صلى الله عليه و سلم- الصبيّ و نفسه تَقَلَّقَلُ في صدره حسبته قال كأنّها شتّة*، فبكى رسول الله -صلى الله عليه و سلم-، فقال سعد بن عبادة: أتبكي؟ فقال: (إنّما يَرَحَمُ اللهُ مَنْ عِبَادِهِ الرَّحَمَاءُ).²⁹²

في سؤال الصحابي استغراب لرؤية الرسول -صلى الله عليه و سلم- ييكي لموت حفيده، و بكاء الرسول -صلى الله عليه و سلم- كان لإحساس مرهف أودعه الله في قلبه، و هو الرّحمة، و يبدو أسلوب الحكيم في إجابة الرسول -صلى الله عليه و سلم- حين أخبره برحمة الله عباده الرّحماء، فهو يجبه بحقيقة أمر بكائه و هو كونه رحيما، و إنّما نبّهه بقضية رحمة الله الرّحماء.

إنّ الله عزّ و جلّ رحيم بالعباد، و قد خلق الله عزّ و جلّ الرّحمة، و جعلها في قلوب المؤمنين، و أحبّ هذه الصّفة في عباده، فإن كان عزّ و جلّ خلقنا، و أنعم علينا بنعم لا تحصى، و لا تعدّ، يرحم عبده الخطّاء و المذنب، و يمنحه فرصا عديدة للتوبة، فما لهذا العبد الضعيف أن لا يتّصف بهذه الصّفة مع إخوانه و محيطه الذي يعيش فيه، من أجل هذا دلّ الحديث أن الله عزّ و جلّ يقصر رحمته فقط على عباده الرّحماء، عقابا للنّاس الذين غابت من قلوبهم هذه الصّفة.²⁹³

و المؤمن يعتقد أنّه دائما فقير إلى رحمة الله تعالى فهذه الرّحمة الإلهية يعيش في الدّنيا و يفوز في الآخرة، و رحمة المؤمن لا تقتصر على إخوانه المؤمنين، و إن كان دافع الإيمان المشترك يجعلهم أولى النّاس بها، و إنّما هو ينبوع يفيض

* - الشن و الشنة الخلق من كل أنية، و الشن القربة الخلق. ينظر لسان العرب -241/13 مادة (شنن)

²⁹² - صحيح البخاري- 288/4.

²⁹³ - محمد عبد الرؤوف المنلوي- "فيض القدير شرح الجامع الصغير" - تحقيق عبد الرؤوف المنلوي- مطبعة مصطفى محمد- 1938-

بالرحمة على النَّاس جميعاً، و أكثر من هذا فالرحمة تتجاوز الإنسان الناطق إلى الحيوان الأعجم.²⁹⁴

*العبادات:

بيّنت السنّة النبويّة الشريفة تفصيلات العبادات الشعائريّة التي تمثّل جوهر التدين العملي كالعبادات الأربع الصلاة و الزكاة و الصيام و الحجّ، كما نجد فيها توجيهات مفصّلة للأخلاق الإسلامية التي بعث الله رسوله ليتمّمها، و هي تشمل الأخلاق الإنسانية التي لا تقوم الحياة الفاضلة إلا بها.²⁹⁵

من المواضيع التي شملتها الأحاديث النبوية الشريفة والتي كانت على طريقة أسلوب الحكيم، و خصّت العبادات موضوع الحجّ -الجهاد- إعداد العمل للساعة.

أ. الحج:

أصل الحجّ في اللّغة القصد، و قال الخليل كثرة القصد إلى معظم، و في الشرع القصد إلى البيت الحرام بأعمال مخصوصة.²⁹⁶

و الحجّ ركن من أركان الدين، و فرض من فرائضه، و آية من آيات الرسالة الإسلامية، و صيغة من صيغ التربية الإسلامية إليها هدت الرحمة الربّانية و وجهت العناية الإلهية.²⁹⁷

عن النبيّ -صلى الله عليه و سلم- أنّ رجلاً سأله ما يلبس المحرم فقال: (لا يلبسُ القميصَ و لا العمامةَ و لا السراويلَ و لا البرئسَ و لا ثوباً مسّه الورسُ

²⁹⁴ - يوسف القرضاوي- "الإيمان و الحياة"- دار الشهاب- الجزائر- 1917- ص289.
²⁹⁵ - يوسف القرضاوي- "المدخل لدراسة السنة النبوية"- مكتبة وهبة- القاهرة- ط3- ص64.
²⁹⁶ - أبو الفضل شهاب الدين الشافعي- "فتح الباري شرح البخاري"- دار إحياء التراث العربي- بيروت- ط3- 1985- 297/3.
²⁹⁷ - سعيد اسماعيل علي- "القرآن الكريم رؤية تربوية"- ص357.

* أو الزعفران، فإن لم يجد النعلين فليلبس الخفين و ليقطعهما حتى يكونا تحت الكعبين).²⁹⁸

في هذا الحديث سئل الرسول -صلى الله عليه و سلم- عما يلبس المحرم فأجاب بما لا يلبس و إنما عدل عن الجواب لأنه أخصر و أحصر، و فيه إشارة إلى أن حق السؤال أن يكون عما لا يلبس.²⁹⁹

و إجابته -صلى الله عليه و سلم- بما لا يلبس المحرم كانت لأسباب منها أن المتروك منحصر و الملبوس غير منحصر، لأن الإباحة هي الأصل، فحصر ما يترك ليبين أن ما سواه مباح، و هذا من بدیع كلامه و جزله و فصاحته، و فيه فائدة أخرى و هو مراعاة المفهوم، فإنه لو أجب بما يلبس لتوهم السامع أن تلك الألبسة خاصة بالمحرم، و لا يستطيع أحد غيره حملها، و هذا غير صحيح. من هنا انتقل إلى ما لا يلبسه لأن مفهومه و منطوقه مستعمل فكان أفصح و أوجه.³⁰⁰

فالرسول -صلى الله عليه و سلم- حصر جميع ما لا يجوز لبسه، و يبقى على الحاج أن يختار ما يرضاه شرط عدم تعدّي ما نهى عنه، ثم يضيف حكم لبس الخفّ عند عدم وجود النعل فزاده بيان حالة الاضطرار.

من هنا نلمس حرص الرسول -صلى الله عليه و سلم- الشديد على إفهام الناس أحكام العبادات، فهو يفصل لهم، و يحيطهم فهما بكل ما يتناهم من أسئلة بطريقة تسهل عليهم استيعاب الأحكام.

و حديث آخر حول موضوع الحجّ:

* - الورس: شيء أصفر مثل اللطخ يخرج على الرّمث بين آخر الصيف و أول الشتاء إذا أصاب الثوب لونه ينظر لسان العرب 54/6 مادة (ورس).

²⁹⁸ - صحيح البخاري- 38/1.

²⁹⁹ - أبو الفضل شهاب الدين الشافعي- "فتح الباري شرح البخاري"- 314/3.

³⁰⁰ - بدر الدين العيني- "عمدة القارئ"- شرح صحيح البخاري- 222/2.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت يا رسول الله ألا نغزوا و نجاهد معكم فقال: (لَكِنَّ أَحْسَنَ الْجِهَادِ وَ أَجْمَلَهُ الْحَجُّ حَجَّ مَبْرُورٌ، فَقَالَتْ عَائِشَةُ: فَلَا أَدْعُ الْحَجَّ بَعْدَ إِذْ سَمِعْتُ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ -صلى الله عليه و سلم-) ³⁰¹.
 في هذا الحديث الشريف نلمس تشوق و رغبة السيِّدة عائشة -رضي الله عنها- في الجهاد و الغزو، و هذا لفضل الجهاد، و المتزلة العظيمة التي يحظى بها الشهداء و المجاهدين، و لما رأى عليه الصلاة و السلام أن الجهاد لا يناسب المرأة، و وجهها إلى أمر ذا أهميَّة لا يقلُّ عن الجهاد خاصة بالنسبة للمرأة و هو الحجّ، فالحجّ إن التزم فيه الحاجّ بكلّ أحكامه و صفّى قلبه من جميع الأحقاد، فإنّ له أجرا عظيما.

و قد دلّ حديث عائشة على أن الجهاد غير واجب على النساء، و لكن ليس معنى كلامه -صلى الله عليه و سلم- أنه ليس لهنّ أن يتطوَّعن بالجهاد، و إنّما لم يكن عليهن واجباً لما فيه من مغايرة المطلوب منهن من الستر، و مجانبة الرجال، فلذلك كان الحجّ أفضل لهنّ من الجهاد. ³⁰²

و في بعض الروايات ردّ عليها بـ"لا" ثم قال "لكن أحسن الجهاد... ³⁰³".

و في هذه الحالة لم يقع أسلوب الحكيم، غير أن عدم تحريم الغزو و الجهاد بالنسبة للمرأة يدلّ أكثر على أنّ الإجابة لم تكن بـ"لا".

فقد كان النبي -صلى الله عليه و سلم- إذا أراد الغزو أقرع بين نسائه، فأيتهنّ خرج سهمها غزا بها. ³⁰⁴

و قد اختلف في ضبط لكن، فقد كثر بضم الكاف خطاب التّسوة، قال القابسي و هو الذي تميل إليه نفسي، و في رواية الحموي لكن بكسر الكاف،

³⁰¹ - صحيح البخاري- 319/1.

³⁰² - أبو الفضل شهاب الدين- "فتح الباري"- 58/6.

³⁰³ - بدر الدين العيني- "عمدة القارئ"- 134/9.

³⁰⁴ - نفسه- 135/9.

و زيادة ألف قبلها بلفظ الاستدراك، و الأوّل أكثر فائدة لأنه يشتمل على إثبات فضل الحجّ، و على جواب سؤالها عن الجهاد، و سمّاه جهادا لما فيه من مجاهدة النفس.³⁰⁵

و نلاحظ أنّها قد ربطت الغزو بالجهاد و ذلك لأن معنهما مختلفان فالغزو القصد إلى القتال، و الجهاد بذل النفس في القتال.³⁰⁶

ب. الجهاد في سبيل الله:

عن أبي موسى -رضي الله عنه- قال: جاء رجل إلى النبي -صلى الله عليه و سلم- فقال: (الرجل يُقاتل للمعتم و الرجل يُقاتل للدكر و الرجل يُقاتل ليُرى مكانه، فمن في سبيل الله قال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله).³⁰⁷

يعدّ الجهاد من أجلّ الأعمال التي يتقرّب بها العبد إلى ربّه، و قد كرّم الله عزّ و جلّ المجاهدين و الشهداء بمرتلة عظيمة، و قد تحدّث القرآن الكريم عنه في آيات كثيرة، و بيّن في كلّ مرّة أجره العظيم، ثم فصلت السنّة النبوية في ذلك، و قد شغل الجهاد فكر جميع الصحابة في عهد الرسول -صلى الله عليه و سلم- و حتى بعده، فالفترة آنذاك كانت فترة نشر الإسلام، و دفع الظلم و الطغيان. من هنا نجد اهتمام الصحابة جليا به، و كثرة سؤالهم عنه.

في هذا الحديث الشريف ذكر الصحابي غايات يجاهد من أجلها بعض الناس، و سأل عن أيّها في سبيل الله، و لكن الرسول -صلى الله عليه و سلم- عدل عن الجواب عن عين ما سأل إلى بيان حال المقاتل.³⁰⁸

³⁰⁵ - أبو الفضل شهاب الدين- "فتح الباري" - 298/3.

³⁰⁶ - نفسه - 59/4.

³⁰⁷ - صحيح البخاري- 139/2.

³⁰⁸ - أبو الفضل شهاب الدين- "فتح الباري" - 23-22/6.

فقوله « الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِلذِّكْرِ » و قوله « الرَّجُلُ يُقَاتِلُ لِيَرَى مَكَانَهُ »، فمرجع الأول إلى السَّمْعَةِ، أي حتى يشتهر بالشجاعة، و مرجع الثاني إلى الرِّياءِ، و كلاهما مذموم، و زاد في رواية منصور و الأعمش و يقاتل حمية أي لمن يقاتل لأجله من أهل أو عشيرة أو صاحب، و زاد في رواية منصور و يقاتل غضبا، فالحاصل من رواياتهم أن القتال يقع بسبب خمسة أشياء: طلبا للغنائم، و إظهار للشجاعة، و رياء، و حمية، و غضبا، و كل منها يتناوله المدح و الذم، فلهذا لم يحصل الجواب بالإثبات و لا بالنفي.³⁰⁹

و حاصل الجواب أن القتال في سبيل الله قتال منشؤه القوة العقلية، لا القوة الغضبية أو الشهوانية.³¹⁰

ج. إِمْدَادُ الْعَمَلِ لِلسَّاعَةِ:

عن أنس رضي الله عنه أن رجلا سأل النبي -صلى الله عليه و سلم- عن الساعة، فقال: (مَتَى السَّاعَةُ؟ قال: و ماذا أَعَدَدْتَ لَهَا؟ قال: لا شيء إلا أني أَحِبُّ الله و رسولَه -صلى الله عليه و سلم- فقال: أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحَبَبْتَ، قال أنس: فَمَا فَرَحْنَا بِشَيْءٍ فَرَحْتَنَا بِقَوْلِ النَّبِيِّ -صلى الله عليه و سلم- أَنْتَ مَعَ مَنْ أَحَبَبْتَ).³¹¹

لقد منَّ الله عزَّ و جلَّ علينا بهذه الحياة، و جعلها امتحانا لنا، فقال عزَّ و جلَّ: ﴿وَمَا خَلَقْتُمُ الْبَشَرَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾³¹²، و الحياة قصيرة لا بدَّ من استغلالها إلى أقصى درجة، فالحكمة ليست في طول الحياة أو قصرها، و إنما في حسن استغلالها، لذلك نجد -صلى الله عليه و سلم- يلفت سائله عن وقت الساعة إلى تذكيره بوظيفته في الحياة، و التي هي عبادة الله عزَّ و جلَّ.

³⁰⁹ نفسه - 22/6.

³¹⁰ بدر الدين العيني - "عمدة القارئ" - 134/9.

³¹¹ صحيح البخاري - 295/2.

³¹² - سورة الداريات - الآية 56..

و مجال العبادة واسع فهي لا تقتصر على الفرائض من صلاة و زكاة و صيام و حجّ، و ما يلحق بها من التلاوة و الذكر و الدّعاء و الاستغفار، و إنّما هي تتعدّاه إلى حسن المعاملة و الوفاء بحقوق العباد كبرّ الوالدين و صلة الأرحام، و هي تشمل الأخلاق و الفضائل الإنسانية من صدق الحديث و أداء الأمانة، كما تشمل الأخلاق الربانية من حبّ الله و رسوله.³¹³

د. خروج النساء في العيد:

سألت امرأة رسول الله -صلى الله عليه و سلم- فقالت: (هَلْ عَلَيَّ إِحْدَانَا بَأْسٌ إِنْ لَمْ يَكُنْ لَهَا جِلْبَابٌ أَنْ لَا تَخْرُجَ، قَالَ لِيُتَلَبَسَهَا صَاحِبَتُهَا مِنْ جِلْبَابِهَا وَ لَتَشْهَدَ الْخَيْرَ وَ دَعْوَةَ الْمُؤْمِنِينَ).³¹⁴

في هذا الحديث الشريف سألت المرأة الرسول -صلى الله عليه و سلم- هل تخرج يوم العيد أو تبقى في منزلها إن لم يكن لها جلباب، و لكنه -صلى الله عليه و سلم- لم يجيبها بنعم أو لا لما تطلّبه السؤال، و إنّما بيّن لها طريقة التصرف في هذه الحالة، و ذلك بأن تستعير جلبابا من صاحباتها، و هنا وقع أسلوب الحكيم.

و في هذا مراعاة لرغبتها و رغبة جميع النساء في الخروج يوم العيد إلى المصلّى. و قوله لتلبسها صاحبته من جلبابها يحتمل أن يكون المعنى تعيرها من جنس ثيابها، و يحتمل أن يكون المراد تشاركها معها في ثوبها.³¹⁵

و في هذا الحديث تأكيد على خروج النساء في العيد لأنّه إذا أمر من لا جلباب لها فمن لها جلباب بالطريق أولى.³¹⁶

³¹³ - يوسف القرظاوي-"العبادة في الإسلام"- دار الشهاب- ص50-51.

³¹⁴ - صحيح البخاري- 287/1.

³¹⁵ - أبو الفضل شهاب الدين-"فتح الباري"- 376/2.

³¹⁶ - بدر الدين العيني-"عمدة القارئ"- 203/6.

أبعاده في الحديث النبوي الشريف:

نلمس في أغلب الأحاديث النبوية الشريفة التي كانت على طريقة أسلوب الحكيم بعدا نفسيا، و يمكن تعميم الأمر على جميع الأحاديث، ذلك أن النبي -صلى الله عليه و سلم- بعث ليزكي النفوس و يربّيها و يعلمها دينها، فكان من الضروري أن يتمتع بقدرة كبيرة على اختبار النفوس، حتى يتمكن من التعامل معها، يقول يوسف القرضاوي: « و ذلك أن النبي -صلى الله عليه و سلم- كانت مهمته، بالإضافة إلى تبليغ ما أنزل الله إليه من القرآن، و تلاوة آياته، تزكية المؤمنين، و التزكية كلمة تضم معنى الطهارة و النماء، فهو يطهرهم من الشرك و الرذائل، و ينميهم بالتوحيد و الفضائل». ³¹⁷

و إلى جانب البعد النفسي، تتعدد الأبعاد الأخرى من اجتماعية و تعليمية...

يمكن استخلاص بعض الأهداف التي قصد إليها الرسول -صلى الله عليه و سلم- من عدوله عن عين ما سئل.

الأعمال بالنيابة:

إنّ أساس القبول لأي عبادة هو إخلاص القلوب لله تعالى، فإنّ حقيقة العبادة ليست شكلا يتعلّق بالمظهر، و لا رسما يتّصل بالجسد، و لكنّها سرّ يتعلّق بالقلب، و إخلاص ينبع من الرّوح، فإذا لم يصدق قلب المسلم في عبادته، و لم يخلص لله في طاعته، و أداها رسوما خالية من الرّوح، كما ينطق الأبله بالألفاظ الخالية من المعنى، فهناك يردّها الله عليه، كما يردّ الصّيرفي النقاد الدراهم الزائفة. ³¹⁸

³¹⁷ - يوسف القرضاوي- "المدخل لدراسة السنة النبوية"- ص9.
³¹⁸ - يوسف القرضاوي- "العبادة في الإسلام"- دار الشهاب- ص50-51.

من أجل هذا نجده -صلى الله عليه و سلم- يؤكد على هذا المبدأ -
 خلوص القصد- و يذكر به الناس، ففي سؤال الرجل عن ماهية القتال، نجده -
 صلى الله عليه و سلم- يعدل عن جميع أنواع القتال التي ذكرها إلى إخباره بأن
 العمل المقبول هو ذلك العمل المصحوب بالنية الصادقة الخالصة لله عزّ و جلّ.
 و يحتمل هذا الحديث أن يكون المراد منه أنّه لا يكون في سبيل الله إلاّ
 من كان سبب قتاله طلب إعلاء كلمة الله فقط، بمعنى أنّه لو أضاف إلى ذلك
 سببا من الأسباب أحلّ بذلك، و يحتمل أن لا يخلّ إذا حصل ضمنا لا أصلا و
 مقصودا.³¹⁹

و عموما فالنية الخالصة لله أساسية في أي عمل يقوم به الفرد، حتى و إن
 رافق العمل غايات أخرى، فلا بد من أن يكون الباعث الأول هو ابتغاء وجه الله
 عزّ و جلّ و إعلاء كلمته.

و خلوص النية لله عزّ و جلّ يبعث في المؤمن قوة كبيرة في إنجاز أي
 عمل، و قد تعجّب الأجانب قديما في قتال المسلمين و شجاعتهم، و تساءلوا عن
 هذه القوة التي تدفعهم، و الحقيقة أن هذه القوة مستمدة من عقيدتهم التي تربطهم
 بالله عزّ و جلّ، فأبيّ رابط آخر معرّض للزوال إلاّ العقيدة، من أجل هذا فإن
 عمر بن الخطاب كان يخشى على المقاتل المسلم من ضعف هذه الرابطة
 السماوية، لأنها لو ضعفت لما أغنى السيّف شيئا.³²⁰

و قد عرف الرسول -صلى الله عليه و سلم- كيف يغرس هذا المبدأ
 في أصحابه بفضل حسن تعامله و مراعاته لحالات الناس، فهو كان على دراية بما
 ينتاب النفس البشرية من غايات في أعمالهم، فراعى حالاتهم و لم ينكر عليهم
 أنواع القتال التي ذكروها، و لم يجبهم بالنفي، و إنّما عدل إلى لفظ جامع لمعنى

³¹⁹ - أبو الفضل شهاب الدين- "فتح الباري"- 22/6.

³²⁰ - عبد العال سالم مكرم- "أثر العقيدة في بناء الفرد و المجتمع"- مؤسسة الإسراء- قسنطينة- ط2- ص162-163.

السؤال و الزيادة عليه، فأفاد دفع الالتباس و زيادة الإفهام بطريقة تسعد الجميع، و تحبب إليهم الجهاد.

مراعاة حالة المرأة:

لقد كرم الإسلام المرأة، و رفع قيمتها بعد أن طمستها أيام الجاهلية، فجعلها في مرتبة الرجل، و جعل الجنة تحت أقدام الأمهات، و قد راعى الإسلام قدراتها

و تركيبها الفيزيائية التي تختلف بالطبع عن الرجل، فأنزل فيها أحكاما تناسبها. فمن مظاهر مراعاة طبيعتها و مشاعرها: قوله -صلى الله عليه و سلم- للسيدة عائشة -رضي الله عنها-: (لكن أحسن الجهاد و أجمله الحجّ حجّ مبرور).³²¹

ففي هذا الحديث الشريف نلمس حفاظ الإسلام للمرأة، فهو جعل الجهاد فرضا على الرجل، و لم يكلف به المرأة.

فالإسلام أعطى كلّ فرد حقه، يتصرّف به كيف شاء و أراد، فلا استبداد و لا استعباد، و لا ظلم، و لا جور و لا فساد، و لم يفرّق بين الرجل و المرأة، إلاّ بما فرضته الأوامر السماوية، كالحجاب و الإرث مثلا، كما خصّ و أفرد الحرب أو الجهاد للرجل إذا لزم الأمر، كلّ فرد ضمن نطاقه.³²²

فهذا التفريق البسيط بين المرأة و الرجل إنّما كان لمصلحة الطرفين، فالله خالق العباد، و هو العالم بما يناسبهم.

و نلمس في هذا الحديث أيضا بعدا نفسيا، فالرسول -صلى الله عليه و سلم- كان بإمكانه أن يجيبها مباشرة بلا، و لا يضيف شيئا، فهي تسأل عن الجهاد، و ليس عن الحجّ، و لكنّه لما كان يراعي جميع حالات النفوس، و علم رغبتها و رغبة أكثر النساء في نيل الأجر، أخبرها أن الحجّ أحسن من الجهاد.

³²¹ - صحيح البخاري- 319/1.

³²² - علي فضل الله- "الأخلاق الإسلامية"- دار مكتبة الحياة- بيروت- ص243.

و بهذه الطريقة في تعامله -صلى الله عليه و سلم-، و بحسن توجيهه، و اختيار الأسلوب المناسب في كلامه، استطاع أن يقنع كل من سأله، أو استفسره

بما يناسبه و كان لهذا التعامل الحسن أثره فيمن حوله، فمثلا نرى السيدة عائشة تقول بعد ذلك: (فلا أدع الحجّ بعد إذ سمعت هذا من رسول الله)، فقد حبّب إليها الحجّ و قد سألته عن الجهاد.

و من مظاهر مراعاته -صلى الله عليه و سلم- لحالة المرأة النفسية أيضا، قوله لمن سألته عن خروجها يوم العيد: (لتلبسها صاحببتها من جلبابها و لتشهد الخير و دعوة المؤمنين).³²³

فالرسول -صلى الله عليه و سلم- أدرك رغبة هذه المرأة الجاحمة في حضور صلاة العيد، فسمح لها بالخروج و هي لا تملك جلبابا، بل أكثر من ذلك حمل كلامه أمرا لصاحباتها بأن يساعدها في لباسها، فيعيروها ثوبا من أثوابهن. و يفهم من كلامه -صلى الله عليه و سلم- أنه يجوز اشتمال المرأتين في ثوب واحد، و هذا على سبيل المبالغة، أن يخرجن على كلّ حال و لو اثنتين في جلباب واحد.³²⁴

و كلامه -صلى الله عليه و سلم- في هذا الحديث و الذي قبله يعكس منهج الإسلام القويم الذي ساوى بين المرأة و الرجل، و أنه لا فرق بين فرد على آخر إلاّ بالتقوى، فسؤال السيدة عائشة و كذا المرأة فيه تقوى الله عزّ و جلّ، و منه كان جوابه -صلى الله عليه و سلم- يوافق تلك الحالة.

تخير سبل الخير:

³²³ - صحيح البخاري - 287/1.
³²⁴ - أبو الفضل شهاب الدين - "فتح الباري" - 376/2.

نلمس في إجابة الرسول -صلى الله عليه و سلم- للرجل الذي سأله عن لباس المحرم، تكثيراً لسبل الخير أمام المؤمنين، فقد عدل بجوابه عما ينحصر إلى ما لا ينحصر، ليفتح أمام الحاج باباً واسعاً لاختيار ما يلبسه. و في الإحرام مساواة في المظهر، فبالرغم من سعة مجال اختيار اللباس، إلا أنه بتجنب ما يحرم سيتقارب المظهر.

فالاختيار هو من باب التسهيل، و ليس من أجل الاختيار و التزويق. و الإحرام يعكس صورة عميقة للإيمان بالله عزّ و جلّ، فالمؤمن و هو محرم يتجرّد من الثياب المعتادة التي يزهى بها الناس و يختالون، و يقتصر على ثوب أبيض متواضع لم تعمل فيه يد الصنعة و التزويق، و هي أقرب ما تكون إلى الثياب التي يكفن فيها الموتى من المؤمنين.³²⁵

و ما حقيقته -الإحرام- إلا التجردّ من شهوات النفس و الهوى، و حبسها عن كل شيء ما سوى الله تعالى، و التفكير في جلاله.³²⁶ و في الحجّ و الإحرام تأكيد على اتحاد المسلمين و تأكيد على مبدأ المساواة.

و ممّا نجد فيه أيضاً دعوة إلى الاتحاد، قوله في الحديث السابق: (لتلبسها صاحبته من جلبابها...)³²⁷، فالرسول -صلى الله عليه و سلم- رأى أن كسوة هذه المرأة واجبا على غيرها، لإدراكه الكلّي بقوة ترابط المسلمين فيما بينهم، و تسابق النساء في كساء هذه المرأة.

و قد استطاع صلى الله عليه و سلم- أن يبيّن مجتمعاً قويا متّحداً، فقد غرس أحسن المبادئ و الأخلاق في قومه، فغدا التكافل الاجتماعي واجبا على

³²⁵ - يوسف القرظاوي- "العبادة في الإسلام" - ص283.

³²⁶ - المرجع السابق- ص285.

³²⁷ - صحيح البخاري- 287/1.

كل مسلم، فأمر عدم امتلاك جلباب ليس مشكلا، و هي تعيش وسط قوم متحابون متظافرون، و هذه صورة بسيطة من صور الاتحاد.

دفع الناس إلى الاجتماع:

لقد بعث النبي -صلى الله عليه و سلم- ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، فكان هدفه الأوّل و الأخير إيصال الدّعوة الإسلامية إلى جميع خلق الله، و قد بيّن له الله عزّ و جلّ الطريق إلى تحقيق هذا الهدف، فأمره بالدّعوة إلى سبيله بالحكمة و الموعدة الحسنة، لأنّ بهما يحصل ترقيق القلوب للحمل على الامتثال لما فيه خير للدنيا و الآخرة.

« و الموعدة الحسنة إنّما يحصل المقصود منها إذا حسن لفظها بوضوح دلالته على معناها، و حسن معناها بعظيم وقعه في النفوس، فعذبت في الأسماع، و استقرت في القلوب، و بلغت مبلغها من دواخل النفس البشرية، فأثارت الرّغبة و الرهبة، و بعثت الرجاء و الخوف بلا تقنيط من رحمة الله و لا تأمين من مكره». ³²⁸

و قد كان -صلى الله عليه و سلم- يرغب الناس و يبشّرهم بما يلقي المؤمنون من سعادة آخروية، و يرهّبهم بشقاء الكافرين و عذاب الله الشديد، و لكن كل ذلك في إطار الموعدة الحسنة.

و منه كثرت في السنة النبوية الشريفة خاصيتي الترغيب و الترهيب لأنهما أساسيتان في حصول القصد.

و تعكس الأحاديث التي كانت على طريقة أسلوب الحكيم هاتين الخاصيتين.

قال -صلى الله عليه و سلم-: « ماذا أعددت لها » ³²⁹ عند السؤال عن

الساعة.

³²⁸ - عبد الحميد بن باديس- "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير"- دار البعث قسنطينة- 1982- ص70.
³²⁹ - صحيح البخاري-2/295.

و قال: (أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادرا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة)³³⁰.

و قال: (هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب...)³³¹

و قال: (إنّما يرحم الله من عباده الرحماء)³³²

فالحديثان الأولان ترهيب من الآخرة، و الثالث ترغيب فيها، و يفهم من الرابع ترهيب و ترغيب، و الغرض فيها جميعا هو دفع الناس للاجتهاد. لأنه « إذا خلا القلب من ملاحظة الجنة و النار، و رجاء هذه ، و الهرب من هذه ففرت عزائمه، و ضعفت همّته، و وهى باعته، و كلّما كان أشدّ طلبا للجنة و عمل لها، كان الباعث له أقوى، و الهمة أشدّ، و السعي أتمّ، و هذا أمر معلوم بالذوق ».³³³

كما أن العمل على طلب الجنة و النجاة من النار مقصود الشارع من أمّته، ليكونا دائما على ذكر منهم فلا ينسوها، و لأن الإيمان بهما شرط في النجاة، و العمل على حصول الجنة و النجاة من النار هو محض الإيمان.³³⁴ إن حقيقة سؤاله -صلى الله عليه و سلم- في قوله: (و ماذا أعددت لها ؟)، ليس للاستفسار عمّا يقوم به الرجل، و يحضّر لهذا اليوم، و الدليل على ذلك هو كون سؤاله عاما، و من الصعب الإجابة عنه و إنّما هو لبعث الحماس فيه للاجتهاد خوفا من العقاب، و إنّما زاد في هذا الترهيب استعماله لأسلوب الحكيم، لأنّ الانتقال من إجابة منتظرة، إلى أخرى لم يتوقعها السامع صنع وقعا خاصا، و تأثيرا مفاجئا في السائل.

³³⁰ - نفسه - 132/4.

³³¹ - نفسه - 140/4.

³³² - نفسه - 188/4.

³³³ - يوسف القرضاوي- "العبادة في الإسلام"- ص113.

³³⁴ - المرجع السابق- ص113.

فالسائل ظنّ أن سؤاله عادي كبقية الأسئلة الأخرى التي تعود الناس طرحها، و غاب عليه أمر إخفائها من الله عزّ و جلّ، فالتقى بسؤال الرسول - صلى الله عليه و سلم- الذي أعاده إلى التفكير المنطقي الذي يميّز المؤمنين، ذلك أنّ أمر الساعة عظيم و ما يناسبها هو الاجتهاد في العمل لها، و ليس السؤال عن وقتها.

و قد كان الرسول -صلى الله عليه و سلم- إذا خطب فذكر الساعة، اشتدّ غضبه، و علا صوته، و احمرّت عيناه، و انتفخت أوداجه، كأنه منذر جيش.³³⁵

و في إجابته -صلى الله عليه و سلم- أيضا، تحريض على محاسبة النفس، فقد أمره أن ينظر فيما قدّم قبل أن يسأل عن الساعة، « و قد حثّ الدين الإسلامي عامة على محاسبة النفس و اتخاذها منهجا لما تحويه من منافع حسّية، تجعل من الإنسان مثالا عاليا و قدوة صالحة ».³³⁶

و يحمل سؤاله -صلى الله عليه و سلم- بعدا آخر، و هو أنه لا قيمة لمُدّة الحياة، و إنّما في حسن استغلالها فعلى المؤمن أن يكون آمنا على أجله، لأن الله قدّر له ميقاتا مسمّى، أياما معدودة، و أنفاسا محدودة، لا نملك قوّة أن ننقص من هذا الميقات أو نزيد فيه، و بإيقان المؤمن أن الله قد فرغ من الآجال و الأعمار، و كتب على كلّ نفس متى تموت، و أين تموت، و هذا الأجل المحدّد يمنح المؤمن السكينة

و الطمأنينة لمواجهة الحياة.³³⁷

و قد عرف الرجل كيف يجيب، فاختر أحسن خلق موجود في المؤمن، و هو حبّ الله و الرسول لأنّ بهما يكون سائر أعمال الخير الأخرى، فالإنسان

³³⁵ - ابن باديس- "مجالس التذكير" - ص70.

³³⁶ - علي فضل الله- "الأخلاق الإسلامية" - ص46.

³³⁷ - يوسف القرضاوي- "الإيمان و الحياة" - ص160.

إذا أحبَّ الله عزَّ و جلَّ و رسوله عمل على طاعتهما، و تجنَّب كل ما يغضبهما، و منه يجيب الرسول -صلى الله عليه و سلم- بقوله: أنت مع من أحببت، تحبباً للمسلمين بأن يتصفوا بهذه الصفة، و التي هي أساسية في العبادة.

و حاصل كلامه -صلى الله عليه و سلم- أنه دفع من حوله إلى الاجتهاد أكثر في عملهم و هم فرحون، متطلِّعون إلى ما سينالون في الآخرة، خاصة و أن جميعهم يحبون الله و رسوله الكريم أكثر من حبِّهم أنفسهم.

و مما نجد فيه ترهيباً من أجل دفع النَّاس إلى الاجتهاد قوله: (أليس الذي أمشاه على الرجلين قادراً على أن يمشيه على وجهه)³³⁸، فالرسول -صلى الله عليه و سلم- يذكر في هذا الحديث بقدرته الله العظيمة، و هذا التذكير ليس من أجل الإخبار فقط، و إنما هو لبعث الخوف في السائل، فإجابة الرسول -صلى الله عليه و سلم- تدفع بالسائل إلى التفكير في نعم الله العظيمة على خلقه، فهو خلقه أولاً ثم جعله يأكل و يمشي و ينام...، و منه سيعرف فضل الله عليه، و يقتنع بأن عقابه حق، و أنه لا بدَّ من تحقيقه على كل من جحد هذه النعم، و أشرك بالله.

و كان لا بدَّ للرسول -صلى الله عليه و سلم- أن يستعمل هذا الترهيب لأن « تجريد التربية من عنصر الخوف تجريداً تاماً مطلقاً، إنما هو ادعاء مزعوم، و خيال موهوم، و إنكار لواقع الإنسان الذي خلقه الله يرجو و يخاف، و يأمل و يخشى، و إذا كان الخوف أمراً لا بدَّ منه، فليكن من مالك الملك، و خالق الخلق، و صاحب الأمر كلّ، على أن خوف المؤمن من ربِّه إنما هو خوف من قاض عادل أن يترل به العقوبة على جرمه، لا خوف من ملك غشوم يأخذ البريء بذنب المسيء ». ³³⁹

³³⁸ - صحيح البخاري - 132/4.

³³⁹ - يوسف القرظاوي - "الإيمان و الحياة" - ص 249.

و عقاب الله لعباده إنّما هو نتيجة لظلمهم، و حشر الكفار على وجوههم سببه أنهم رفعوا وجوههم في الدنيا عن السجود لله، فأذلّ الله تلك الوجوه في المحشر، و رفعوا رؤوسهم كبرا عن الحق فنكسها الله يوم القيامة، و مشوا في طريق النظر و الاستدلال مشيا مقلوبا، فمشوا في الآخرة مشيا مقلوبا، فكان ما تلاهم من سوء الحال جزاء وفاقا لما أوتوا من قبيح الأعمال.³⁴⁰

و فيما يذكره الله تعالى من هذا الجزاء العادل تخويف عظيم لنا من سوء الأعمال التي تؤدي إلى سوء الجزاء، و خصوصا في مثل ما ذكر فيما قدم من ترك السجود، و الكبر على الحق، و النظر المقلوب.

و منه كانت إجابته -صلى الله عليه و سلم- تبعث في المؤمن خوفا، و تدفعه إلى الاجتهاد لنيل رضا الله.

و أيضا في قوله حثّ على إعمال العقل للتفكير، فيما أنعمه الله عزّ و جلّ على عباده من أجل الاقتناع بما يستحقّه كل جاحد لهذه النعم.

نأتي الآن إلى ذكر الحديث الذي كان على طريقة الترغيب من أجل دفع الناس إلى الاجتهاد، قال -صلى الله عليه و سلم-: (هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال هل تضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب...).³⁴¹

هذا الكلام منه -صلى الله عليه و سلم- قمة في ترغيب الناس للاجتهاد، لاحتوائه تشويقا إلى رؤية الله عزّ و جلّ، ذلك أن الجزاء الأكبر لعباد الله المخلصين هو في حلول رضا الله عليهم فالجنة ليست اسما لمجرد الأشجار و الفواكه، و الطعام و الشراب، و الحور العين، و الأنهار و القصور. و أكثر الناس يغلطون في مسمى الجنة؛ فإن الجنة اسم لدار النعيم المطلق الكامل، و من أعظم نعم الجنة: التمتع بالنظر إلى وجه الله الكريم و سماع كلامه، و قرّة العين بالقرب

³⁴⁰ - ابن باديس- "مجالس التذكير" - ص262.
³⁴¹ - صحيح البخاري- 140/4.

منه و برضوانه، فلا نسبة للذة ما فيها من المأكول و المشروب و الملبوس و الصور إلى هذه اللذة أبدا»³⁴².

و بين الرسول -صلى الله عليه و سلم- هذا النعيم الناتج من رضا الله، فرؤيته عزّ و جلّ مؤكّدة للناس المؤمنين، و في ذلك متعة عظيمة، و نعيم لا مثيل له، فالسؤال تطلّب فقط إجابة بنعم أو لا، أي هل رؤية الله عزّ و جلّ محققة أو لا، إلاّ أنه -صلى الله عليه و سلم- و رغبة منه في بعث الحماس في المسلمين للعمل ساق لهم هذا التشبيه ليظهر لهم تلك الراحة، و هم ينظرون إليه عزّ و جلّ، ممّا يبعث فيهم رغبة في العمل أكثر.

و كما قلنا سابقا فقد وازن -صلى الله عليه و سلم- بين الترغيب و الترهيب في كلامه، و استعماله لهتين الخاصيتين كان لطبيعة المقام و طبيعة السؤال، فرأينا كيف أجاب الرّجل الذي يسأل عن الساعة، و الآن سألوا عن رؤية الله عزّ و جلّ فزادهم تشويقا لذلك و ساق لهم هذا التشبيه.

يفهم من قوله -صلى الله عليه و سلم-: (إثمًا يرحم الله من عباده الرحماء)³⁴³ معنيان أحدهما ترهيب للناس القاسية قلوبهم من عدم رحمة الله لهم، و الثاني تبشير للناس الرحماء بجلول رحمة الله عليهم، و كلا المعنيان يهدفان إلى حثّ الناس للاتّصاف بخلق الرّحمة لأن شأنه عظيم.

و ظاهر العبارة أن رحمة الله لا تخصّ إلاّ العباد الرحماء، فما حظّ الإنسان المسلم الذي غابت عنه هذه الصّفة، و ما حظّ الكافر عموما؟ إنّ هذا القول إنّما هو من أجل التخويف، و التأكيد على أهمية هذا الخلق، لأن رحمة الله عزّ و جلّ شاملة وسعت كل شيء، و شملت المؤمن و الكافر و البرّ و الفاجر، و استوعبت الدّنيا و الآخرة.³⁴⁴

³⁴²- يوسف القرضاوي- "العبادة في الإسلام"- ص114.

³⁴³- صحيح البخاري- 188/4.

³⁴⁴- يوسف القرضاوي- "الإيمان و الحياة"- ص289.

فرحمة الله الكافر إنما هي في حياته، فهو يرحمه بنعمه عليه منذ أن منحه الحياة إلى يوم القيامة.

كما أنه من أبرز أسماء الله عزّ وجلّ "الرحمن الرحيم" و لهذين الاسمين الكريمين إيجاء قوي في نفس المؤمن، فضلا عمّا توجهه عليه عبوديته لله أن يكون له حظّ من أسمائه تعالى، فحظّ العبد من اسم "الرحمن" أن يرحم عباد الله الغافلين، فيصرفهم عن طريق الغفلة إلى الله بالوعظ و النصح، و أن ينظر إلى العصاة بعين الرحمة، لا بعين الإيذاء، و أن يرى كلّ معصية تجري في العالم كمعصية له في نفسه، و حظّ العبد من "الرحيم" ألاّ يدع فاقة للمحتاج إلّا و يسدّها بقدر طاقته، و لا يترك فقيرا في جواره³⁴⁵.

لهذا على الإنسان أن يكون مثله الأعلى أخلاق الله عزّ وجلّ، و أن يكون له حظّ من أسمائه الحسنی.

و استعماله لهذا الأسلوب، أثره في ترسيخ هدفه، فالسائل يسأله عن بكائه، و الرسول -صلى الله عليه و سلم- يجيبه بعبارة شاملة حكيمة، قائلا: (إنّما يرحم الله من عباده الرحماء)، حتى يتّعظوا، و يتفكّروا في خلق الرحمة. هذه الأهداف تدخل في إطار أبعاد مختلفة، فترسيخ مبدأ الأعمال بالنيات، و دفع الناس إلى الاجتهاد هي أبعاد دينية تعليمية، و مراعاة حالة المرأة، و تكثير طرق الخير هي أبعاد اجتماعية، و يأتي البعد النفسي على رأسها من خلال طبيعة تعامله -صلى الله عليه و سلم- لتوصيل ما قصده، و ذهب إليه. من هنا تعدّدت الأبعاد في الأحاديث التي كانت على طريقة أسلوب الحكيم، و عموما فإن كل كلامه -صلى الله عليه و سلم- أهداف، فهو لم ينطق بقول، و لم يقم بفعل إلّا و وراءه قصد، لأنه صاحب دعوة، و مهمته عظيمة.

³⁴⁵ - نفسه ص 288-289.

و استعماله -صلى الله عليه و سلم- لأسلوب الحكيم في كلامه كان له أثره العظيم في تحقيق أهدافه، لأنّه عرف كيف يستخدمه، فراعى به تفسيات قومه، لأنّ نشر الدّعوة اعتمدت أوّلا و قبل كل شيء على الحكمة، و الموعظة الحسنة.

III- خصائصه الأسلوبية في الحديث الشريف:

لقد ميّزت الأحاديث التي ذكرناها بعض الخصائص الأسلوبية، صنعت جمالها، و زادت من روعتها.

الخبر و الإنشاء:

تنوّعت الأساليب في الأحاديث التي كانت على طريقة أسلوب الحكيم بين الخبر و الإنشاء، و لتوظيف كل منهما أسرار و مكامن.

*الخبر: من الأحاديث التي وردت فيها الأساليب خبرية، قوله -صلى الله عليه و سلم-: (لكن أحسن الجهاد و أجمله الحجّ حجّ مبرور)³⁴⁶.

يبدو أن الغرض من إلقاء هذا الخبر هو إعلام السيدة عائشة -رضي الله عنها- بقيمة الحجّ، و بأنه نوع من الجهاد، غير أننا نلمس غرضا آخر من هذا الكلام، و هو حثّها و ترغيبها في الحجّ، و تنفيذها من الجهاد، و من المعلوم أن الحثّ يناسبه صيغة الأمر، لكن نرى هنا أنه وقع بصيغة الخبر.

و يعبر بالخبر في موضع الإنشاء لأغراض منها حمل المخاطب على تحقيق المطلوب و تحصيله، و الاحتراز عن صورة الأمر و النهي.³⁴⁷

و لعلّ استعماله -صلى الله عليه و سلم- الأسلوب الخبري في هذا الموضوع هو دفعها إلى التمسك بالحجّ، و عدم التفكير بالجهاد بطريقة خالية من

³⁴⁶- صحيح البخاري- 319/1.

³⁴⁷- بسبوني عبد الفتاح-"علم المعاني"- ص342.

الاستعلاء

و الأمر، فالرسول -صلى الله عليه و سلم- مثل في حسن المعاملة الزوجية و التواضع.

و قد ابتدأ حديثه بـ"لكن"، و معنى لكن: كلمة استدراك تتضمن ثلاثة معان منها لا و هي نفي، و الكاف بعدها للمخاطبة، و النون بعد الكاف بمعنى إن الخفيفة أو الثقيلة، إلا أن الهمزة حذفت منها استثقالا لاجتماع ثلاثة معان في كلمة واحدة.³⁴⁸

و منه كلمة "لكن" تفيد التوكيد لاحتوائها على "إن" المفيدة لذلك، فالرسول -صلى الله عليه و سلم- أكد لها أفضلية الحجّ على الجهاد بالنسبة للمرأة حتى تقتنع. و "اللام" في "لكن" تفيد نفي خبر متقدم.³⁴⁹ و في هذا الحديث ابتدأ بها مباشرة بعد السؤال، و منه أفادت نفي سؤالها الذي هو رغبة في الجهاد بطريقة لطيفة.

و ورد الأسلوب خبريا أيضا في قوله -صلى الله عليه و سلم-: (لا يلبس القميص و لا العمامة و لا السراويل و لا البرنس...).³⁵⁰

و حقيقة هذا الخبر هو أمر لجميع الناس باجتناّب ما ذكره في فترة الإحرام، لكن يبدو مجيء الأسلوب خبريا هنا لأمرين:

أولهما حتى يكون مشاكلا للسؤال، فالسائل قال: ما يلبس المحرم؟ و لم يقل: ما نلبس؟ و الثاني أن الرسول -صلى الله عليه و سلم- أراد بكلامه أن يعلم السامع أمرا لم يكن يعلمه، و يفصل للناس جميعا ما يخصّ ركن الإحرام فناسب لذلك أسلوب الخبر لأنه يعتمد على الحكاية.

³⁴⁸ - ابن فارس- "الصاحبي في فقه اللغة" - ص124.

³⁴⁹ - المرجع السابق- ص125.

³⁵⁰ - صحيح البخاري- 38/1.

و من الخبر أيضا قوله: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله).³⁵¹

هذه الجملة خبرية مركبة غرضها بصفة عامة إعلام السائلين بحقيقة المجاهد، و التي يجب أن تكون نيته في إعلاء كلمة الله أولا.

و دخول الفاء في جملة "هو في سبيل الله" لتضمن "من" معنى الشرط.³⁵² و نلاحظ ورود ضمير الفصل "هي" في جملة "لتكون كلمة الله هي العليا" و ذلك لإفادة تأكيد هذا الخبر، أي فضل كلمة الله تعالى في العلو، و أنها المختصة به دون سائر الكلام.³⁵³

و جملة "فهو في سبيل الله" هي خبر، و عادة ما يحذف الخبر عندما يقع في جواب استفهام، إلا أنه ذكر لتأكيد أمر نية الجهاد.

***الإنشاء:** أما عن الأساليب الإنشائية فقد ورد حديث على صيغة الأمر، و ثلاث أحاديث على صيغة الاستفهام:

-**الأمر:** قال -صلى الله عليه و سلم-: (لتلبسها صاحبته من جلبابها و لتشهد الخير و دعوة المؤمنين).³⁵⁴

و الأمر هو طلب الفعل على وجه الاستعلاء و الالتزام، و يقصد بالاستعلاء، أن ينظر الأمر لنفسه على أنه أعلى مرتبة ممن يخاطبه أو يوجه الأمر إليه، و قد يخرج الأمر عن معناه الأصلي ليدلّ على معان أخرى تستفاد من السياق و قرائن الأحوال.³⁵⁵

في هذا الحديث الشريف يبدو أن الأمر خرج عن معناه الأصلي إلى معنى آخر و هو الإباحة.

³⁵¹ - نفسه - 139/2.

³⁵² - بدر الدين العيني- "عمدة القارئ"- 197/2.

³⁵³ - نفسه- الصفحة نفسها.

³⁵⁴ - صحيح البخاري- 287/1.

³⁵⁵ - ويس عمار - "محاضرات في مادة البلاغة العربية"- مطبوعات جامعة منتوري- قسنطينة- 2004 - ص64.

فالمرأة سألت هل بإمكانها الخروج أم لا وهي لا تملك جلبابا، و الجواب يحمل معنى الإباحة لها بالخروج، إذ يبدو من سؤالها أنّها توهمت أن أمر خروجها وهي لا تملك جلبابا أمر محذور، لذلك قالت ألاّ تخرج؟ و لم تقل أن تخرج؟

-الاستفهام: هو طلب العلم بشيء لم يكن معلوما من قبل بأدوات خاصة، كما يفيد كثير من المعاني البلاغية: كالإنكار، و التعجب، و الاستبعاد، و التهديد و التهكم، و الأمر...³⁵⁶

قال -صلى الله عليه و سلم-: (و ماذا أعددت لها؟)³⁵⁷، ردّا على من سأله عن الساعة.

جواب الرسول -صلى الله عليه و سلم- كان عبارة عن سؤال آخر، و الغرض من سؤاله ليس طلب العلم كما يبدو، و إنّما هو أمر السائل و حثّه على العمل للسّاعة، و يظهر أن الجواب جاء على صيغة الاستفهام، لأنّ في ذلك إغراء للمخاطب، و حثّا له للاستجابة و قبول الأمر -و الله أعلم-.

و قال أيضا -صلى الله عليه و سلم-: (هل تضارون بالشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: هل تضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله).³⁵⁸

ورد الاستفهام هنا بالأداة "هل"، يرى البلاغيون أنّ المعنى الأصلي ل"هل" هو "التصديق"، و معنى التصديق أن يكون السائل غير عالم بالنسبة التي يتضمنها الكلام أمثبه هي أن منفية، فهو يسأل عنها.³⁵⁹

من المعلوم أن رسول الله -صلى الله عليه و سلم- كان عالما بعدم لحوق ضرر بالناظرين إلى الشمس و القمر، فهذا الأمر بديهي، و إنّما كان غرضه من طرح هذين السؤالين هو بعث التشويق في نفوس السائلين إلى رؤية الله تعالى.

³⁵⁶ - نفسه ص 64.

³⁵⁷ - صحيح البخاري-2/295.

³⁵⁸ - صحيح البخاري- 140/4.

³⁵⁹ - عبد اللطيف شريقي -زبير دراقي - " الإحاطة في علوم البلاغة" ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر-2004-ص:34.

فالاستفهام من أحسن الأساليب في إفادة التشويق.
 و قال -صلى الله عليه و سلم-: (أليس الذي أمشاه على الرجلين قادرا
 على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة؟).³⁶⁰
 ورد الاستفهام هنا بالهمزة، و قد خرجت عن معناها الأصلي الذي هو
 التصديق، أو التصوير³⁶¹ إلى غرض بلاغي آخر.
 يمكن وصف الهمزة هنا بأنها للإنكار أو التقرير.
 و معنى الإنكار هو تكذيب أمر قد وقع في الماضي أو يقع في الحال،
 أو الاستقبال³⁶²، و الإنكار في هذا الحديث واقع على نفي الحكم، و إنكار
 النفي إثبات، فالمعنى يصبح "إن الذي أمشاه على الرجلين قادر على أن يمشيه على
 وجهه يوم القيامة".
 أما المراد من التقرير هو حمل المخاطب على الإقرار بأمر قد استقرّ عنده
 ثبوته أو نفيه، و همزة التقرير كهزمة الإنكار إذا دخلت على مثبت نفته، و إذا
 دخلت على المنفي نفته.³⁶³
 و منه يكون الغرض من توظيف هذا الاستفهام في الحديث هو إنكار
 عدم قدرة الله عزّ و جلّ على حشر الكافر على وجهه، و حمل المخاطب على
 الإقرار بقدرة الله العظيمة.
 قال القزويني: « و من مجيء الهمزة للإنكار، قول تعالى: ﴿أَلَيْسَ اللَّهُ
 بِكَافٍ عَبْدَهُ﴾، أي الله كاف عبده، و هذا مراد من قال: إن الهمزة فيه للتقرير بما
 دخله النفي، لا التقرير بالانتفاء». ³⁶⁴

³⁶⁰ - صحيح البخاري- 132/4.

³⁶¹ - أحمد نحلة- "في البلاغة العربية"- علم المعاني "دار العلوم العربية-لبنان-1990- ص92.

³⁶² - نفسه- ص96.

³⁶³ - المرجع السابق- ص98/97.

³⁶⁴ - القزويني- "الإيضاح في علوم البلاغة"- 135/1.

كما نرى في هذا الحديث الشريف أن المسند إليه جاء اسم موصول "الذي"، و يؤتى بالاسم الموصول في موضع المسند إليه لأغراض بلاغية كثيرة منها زيادة التقرير، استهجان التصريح، أن يجعل ذريعة إلى التعريض بالتعظيم لشأن الخبر.³⁶⁵

و في هذا الحديث أفاد استعماله تعظيم شأن الخبر الذي هو قدرة الله عزّ و جلّ على كلّ شيء.

كما أنّ "الذي" لا توصل إلا بجملة من الكلام قد سبق من السامع علم بها، و أمر قد عرفه.³⁶⁶

و الجملة في الحديث بعد الذي هي خاصة لله عزّ و جلّ، و لا يمكن أن يتّصف بها شيء آخر من أجل هذا جيء باسم الموصول هنا.

الإيجاز:

لقد أوتي الرسول -صلى الله عليه و سلم- جوامع الكلم، فكان كلامه كلّهُ إيجازاً يلّمّ بأكثر المعاني في عبارات قليلة موحية.³⁶⁷

نلمس إيجازاً في كلّ الأحاديث التي كانت على طريقة أسلوب الحكيم، نذكر قوله -صلى الله عليه و سلم-: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو سبيل الله)³⁶⁸، هذا الحديث في غاية البلاغة و الإيجاز، و قد عدّ من جوامع كلمه.³⁶⁹

فقد جاء الجواب جامعاً للمعنى السؤال و زاد عليه بطريقة مختصرة، فلو قال أن جميع أنواع القتال التي ذكروها ليست في سبيل الله، طال به الشرح، و ربما

³⁶⁵ - نفسه - 47/1.

³⁶⁶ - عبد القاهر الجرجاني- "دلائل الإعجاز" - ص 199.

³⁶⁷ - القزويني- "الإيضاح في علوم البلاغة" - 47/1.

³⁶⁸ - صحيح البخاري- 139/2.

³⁶⁹ - أبو الفضل شهاب الدين- "فتح الباري" - 22/6.

اضطر إلى ذكر التفاسير، حتى يفهموا ذلك، غير أنه لفت نظرهم إلى معنى رفيع و هو خلوص النية في طلب إعلاء كلمة الله، و بذلك بيّن لهم معنى الجهاد الحقيقي، و أغناهم عن الاستفسار أكثر.

و نجده -صلى الله عليه و سلم- أيضا يلفت السائل عن سؤاله طلبا للإيجاز في رده على من سأله عن لباس المحرم، فقد حدّد جميع الألبسة التي لا يجوز حملها أثناء الحجّ، و بهذا أحاطهم فهما عما سألوا بكلام موجز، و لو قام بالعكس، و ذكر لهم ما يجب حمله لطال الأمر، و صعب على السائل الاستيعاب، فأنواع اللباس غير محدود.

و من الإيجاز أيضا قوله -صلى الله عليه و سلم- : (و ماذا أعددت لها)، إذ صرف السائل عن وقت الساعة إلى إعداد العمل الصالح لها، فترى هنا قدرته العظيمة على التوجيه الحسن في أقصر صورة من اللفظ، و أي جواب آخر لم يكن ليوصل إلى الغرض المنشود، و حتما سيكون أطول.

خاصة و أن سؤاله كان عن أمر غيبي، و الجواب طبعاً لن يكون بما أراد السائل، غير أنه كان بإمكانه -صلى الله عليه و سلم- أن يجيبه بأنه لا يعلمها و أن علمها مقصور عند الله سبحانه و تعالى، و لكن لما كان يريد دائماً مصلحة عباد الله ذكره بأهمية إعداد العمل الصالح لها، و أن هذا ما يجب على المسلم أن يشغل به نفسه بطريقة موجزة.

أسلوب القصر:

القصر هو تخصيص شيء بشيء بطريق مخصوص و له طرفان: مقصور و مقصور عليه.³⁷⁰

و للقصر طرق كثيرة أشهرها: القصر بالنفي و الاستثناء، القصر بالعطف، القصر بتقديم ما حقه التأخير.³⁷¹

³⁷⁰ - عبد اللطيف شريفى - زبير دراقى "الإحاطة في علوم البلاغة" - ص: 81.
³⁷¹ - نفسه ص: 81-82.

قال -صلى الله عليه و سلم-: « إئتما يرحم الله من عباده الرّحماء ».³⁷²
 ظاهر الحديث الشريف أن رحمة الله عزّ و جلّ مقصورة على عباد الله
 الرّحماء، و يسمى هذا القصر بالحقيقي.

و القصر الحقيقي نوعان: قصر حقيقي تحقيقي، و قصر ادّعائي.³⁷³
 و القصر في هذا الحديث هو إدعائي لأن قصر رحمة الله على الرّحماء فقط
 هو ادعاء و مبالغة، و الغرض منه التنويه بقيمة خلق الرحمة.
 و "إئتما" أداة هادئة تستعمل فيما شأنه أن يعلمه المخاطب و لا ينكره،
 فهي تستعمل في المعاني الواضحة على عكس "لا" و "إلا"، فهي أداة همس و تنبيه
 يهمس بها المتكلم، و ينبّه مخاطبه إلى تلك الأمور المعلومة الواضحة.³⁷⁴
 و يبدو أن هذا ما قصده الرسول -صلى الله عليه و سلم-، فرحمة الله
 العباد، أمر ظاهر و قد ذكر في هذا المقام لتنبيه المخاطب بهذا المعنى الجليل.
 و يفيد استعمال "إئتما" أيضا التلويح إلى معنى آخر على سبيل
 التعريض³⁷⁵، ففي هذا الحديث تعريض إلى ذم الناس الذين غابت من قلوبهم
 الرحمة.

الفصل و الوصل:

تتعدّد الأسباب التي تفصل الجمل عن سابقتها أو توصل:
 قال -صلى الله عليه و سلم-: (لا يلبس القميص و لا العمامة و لا
 السراويل و لا البرنس و لا ثوبا مسّه الورس أو الزعفران، فإن لم يجد النعلين
 فليلبس الحفّين و ليقطعهما حتى يكونا تحت الكعبين).³⁷⁶

³⁷² - صحيح البخاري- 188/4.

³⁷³ - بسيوني عبد الفتاح لاشين- "علم المعاني"- ص230/229.

³⁷⁴ - نفسه- ص274.

³⁷⁵ - المرجع السابق- ص278.

³⁷⁶ - صحيح البخاري- 38/1.

نلاحظ في هذا الحديث ربط الكلمات المفردة: العمامة، السراويل... لأنها كلّها تدخل ضمن ما لا يلبس.

ثم بعد ذلك نجد الجملة "فإن لم يجد النعلين"، و الفاء فيها تفيد الترتيب من غير تراخ، و قد رأينا أن هذه الجملة (الجواب) هي زيادة عن السؤال، و ربطها بفاء دليل على حرص الرسول -صلى الله عليه و سلم- على الإفهام و بيان كل ما يحتاجه المسلم، فرغم كون هذه الإجابة زيادة منه، و توضيحا لحالة لم يسألوا عنها، إلاّ أنه ربطها بالفاء حتى بدت و كأنّه داخلة في معنى السؤال، و جاءت الفاء أيضا في جملة جواب الشرط.

و نجد الجملة الأخيرة "ليقطعها حتى يكونا تحت الكعبين" ربطت بالواو و لم تربط بفاء لوجود مناسبة بينها و بين الجملة التي قبلها فقط، و هو اشتراك المسند إليه.

و في قوله -صلى الله عليه و سلم-: « لكن أحسن الجهاد و أجمله الحجّ حجّ مبرور ». ³⁷⁷

نلاحظ فصل جملة حجّ مبرور، و هذا لكمال اتصالها بالجملة التي قبلها، لأنّها بدل بعض من كل.

و في قوله: (لتلبسها صاحبها من جلبابها و لتشهد الخير و دعوة المؤمنين). ³⁷⁸

ربطت هذه الجمل لأنّها متّفقة في الإنشاء لفظا و معنى، و وجد مسوّغ للربط، و هو اشتراك المسند إليه، و هو المرأة.

³⁷⁷ - نفسه - 319/1.

³⁷⁸ - صحيح البخاري - 287/1.

الفصل الرابع

أسلوب الحكيم بين القرآن الكريم
و الحديث النبوي الشريف

أسلوب الحكيم بين القرآن الكريم و الحديث النبوي الشريف

فصوية أسلوب الحكيم في كل من القرآن و الحديث

من حيث الكم

من حيث المواضيع

من حيث الأبعاد

من حيث الخصائص الأسلوبية

تلخيص أهم النقاط

I- خصوصية أسلوب الحكيم في كل من القرآن و الحديث:

إن ما جاء في السنة النبوية الشريفة في الحقيقة لا يتعارض مع ما جاء في القرآن الكريم، فالسنة كانت شارحة و مبينة لأحكام القرآن، و قد تكاملت العلاقة بينهما، لاشتراك الغاية، كما أمرنا الله عزّ و جلّ بالعمل بالسنة فقال عزّ و جلّ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾³⁷⁹.

و إن كان لا يختلفان من حيث الغاية فإن لكل من القرآن الكريم، و الحديث الشريف خصوصياته.

دراستنا لأسلوب الحكيم في كل من القرآن الكريم و الحديث الشريف جعلتنا ندرك وجود خصوصيات له في كل منهما.

1) من حيث الكم:

كما رأينا ورد أسلوب الحكيم في القرآن الكريم بنسبة تفوق وروده في الحديث النبوي الشريف، فالنماذج التي أحصيناها في الحديث -و التي ارتأيناها منه- هي ثمانية نماذج فقط.

أمّا في القرآن الكريم فقد زادت عن الثلاثة عشر نموذج.

و هذا العدد الذي ذكرناه في الحقيقة لا يعكس كميته الحقيقية في كل منهما، ذلك أن مصادر الحديث متعددة، و نحن اقتصرنا على صحيح البخاري، كما أن أسلوب الحكيم قسمان، و النماذج التي أحصيناها كلها من القسم الثاني، و هذا لا يعنينا المصدرين خليا من القسم الأول، -الذي هو حمل كلام الغير بخلاف مراده-، و لكن اقتصرنا على القسم الثاني منه لأنه يعتمد على ظاهرة الأسئلة، و بهذه الخاصية سهل الاستخراج.

³⁷⁹- سورة الحشر - الآية 7.

و لكن على قلة الآيات و الأحاديث التي كانت على طريقة أسلوب الحكيم، تعددت المواضيع و الأبعاد فيهما، و هذا يعكس قيمة هذين المصدرين و غناهما.

(2) من حيث المواضيع:

اختلفت مواضيع أسلوب الحكيم في القرآن الكريم عنه في الحديث النبوي الشريف، فمواضيعه في القرآن هي كما رأينا: العلم بالغيب، بيان القدرة الإلهية، بيان منافع الناس، فائدة الأهلّة، بيان المصرف.

أما في الحديث فهي حول يوم القيامة، الحجّ، و الجهاد و ما إلى ذلك. من نظرنا الأولى لهذه المواضيع نرى أنّها في القرآن تصب في معنى التوحيد و المعاملات، أما في السنة فقد خصت أكثر العبادات.

هذه المواضيع تعكس أولاً جزءاً من مواضيع القرآن و السنة بصفة عامة، فالقرآن احتوى جانباً كبيراً من التوحيد، و الحكمة من ذلك هو ترسيخ هذه الفكرة، حتى إذا ثبتت في النفوس سهل تطبيق الأحكام و الشرائع.³⁸⁰

لكن سنحاول أن نرى خصوصية الانحراف من موضوع السؤال إلى موضوع الجواب في كل منهما.

أغلب الأسئلة في الآيات التي ذكرناها كانت عن أمور غيبية (الروح- الله- الساعة- القرون الأولى...)، و الإجابة عنها كانت مباشرة بردها إلى علم الله، أو بالتذكير بقدرة الله العظيمة.

أما في الحديث الشريف فقد ورد سؤالان عن الغيب، الأول هو عن حشر الكافر و الجواب فيه كان بالتذكير بقدرة الله عزّ و جلّ، و الثاني كان عن وقت الساعة.

³⁸⁰- يوسف القرضاوي- "المدخل لدراسة السنة"- ص69.

و طريقة الإجابة في الحديث الأول أشبهت كثيرا طريقة الإجابة في قوله عزّ و جلّ: ﴿قُلْ يُخَيِّبُهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾³⁸¹ ، فالسؤال في الحديث كان سؤال استغراب، و السؤال في الآية كان إنكارا لإحياء العظام، و في كلتا الحالتين جاء الجواب بأن الله قادر على الفعلين، بنفس الطريقة بحملهما علة منطقية، فالذي خلق العظام أول مرة قادر على إحيائها، و الذي أمشى على الرجلين قادر على أن يمشي على الوجه، و في كلا السؤالين لم يتطلب السائل معرفة القادر على ذلك الفعلين، و الجواب كان بذكر ذلك.

أمّا الحديث الثاني الذي هو عن وقت الساعة، و قد ورد نفس لسؤال في الآيات التي ذكرناها، فقال عزّ و جلّ: ﴿وَمَتَى هَذَا الْوَعْدُ﴾³⁸² ، و في كليهما عدل الجواب عن ذكر وقتها، و لكن الجواب كان مختلفا، حيث كان في الآية بالإخبار بأن المسؤول لا يملك ضرا و لا نفعا لنفسه، و في الحديث كان الجواب بطرح سؤال آخر و هو ماذا أعددت لها؟

فالسؤال واحد في كل من الآية و الحديث، و لكن في الآية السائلون مشركون، و قصدوا التعنت، أما في الحديث، فالسائل مسلم، و سؤاله كان فقط فضولا، و منه وجهه الرسول -صلى الله عليه و سلم- لأمر أهم، لأن وظيفته هي تعليم الناس ما ينفعهم، و بذلك استغلّ سؤال الصحابي عن وقت الساعة، لينبهه إلى قضية أكثر أهمية.

³⁸¹- سورة يس- الآية 78.

³⁸²- سورة يونس- الآية 48.

و قد أراد المشركون إخراج الرسول -صلى الله عليه و سلم- بأسئلتهم عن الروح و الساعة فأوحى الله على رسوله الكريم بما يجيبهم فقال: ﴿قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾³⁸³ ، ﴿قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾³⁸⁴ ، و منه كان الجواب بالسياق القرآني أنفع و أردع لتعنتهم، و قطع بذلك جدالهم.

و في سؤال الناس عن الأهلة، جاء الجواب بالسياق القرآني، و أمر الأهلة دقيق و عظيم، و منه كانت الإجابة مختصرة و موحية بعظم أمرها: ﴿قُلْ هِيَ مَوَاقِبَتُهُ لِلنَّاسِ وَ الْحَجِّ﴾³⁸⁵ ، فالقرآن الكريم حوى جميع العلوم، و لكن اكتفى بالإشارة إليها حتى يبقى للإنسان اكتشافها ليدرك عظمة هذا القرآن.

كما أن من طبيعة القرآن الكريم أنه يجوي أحكاما عامة، و إشارات عميقة، و السنة تفسر ما يتطلب التفسير، يقول يوسف القرضاوي: «و إذا كان القرآن الكريم يضع القواعد العامة، و المبادئ الكلية، و يرسم الإطار العام، و يحدد بعض النماذج لأحكام جزئية لا بد منها، فإن السنة تفصّل ما أجمله القرآن الكريم، و تبين ما أهمله، و تضع الصور التطبيقية لتوجيهاته»³⁸⁶.

فموضوع الأهلة لا يحتاج إلى الشرح، و منه اكتفى بالإشارة إلى فائدتها في سياق قرآني، أما المواضيع الأخرى في القرآن الكريم فقد خصّت المعاملات، كسؤالهم عن الإنفاق، الخمر، الأنفال، و هذه القضايا هي مهمة جدا بالنسبة لهم، فالخمر آنذاك كان له منزلة عظيمة في نفوس الناس، و السؤال كان عن تحريمه، و جاء الجواب بتبيان ما فيه من الإثم.

و الإنفاق أمر يخص شيئا عزيزا عليهم، و هي أموالهم، فبين لهم عزّ و جلّ كيف يتصرفون.

³⁸³- سورة الإسراء- الآية 85.

³⁸⁴- سورة يونس- الآية 49.

³⁸⁵- سورة البقرة- الآية 189.

³⁸⁶- يوسف القرضاوي- "المدخل لدراسة السنة"- ص63.

و في الأنفال وقع خلاف بين المهاجرين و الأنصار، و بإجابته عزّ و جلّ قطع الخلاف بينهم.

أما عن باقي موضوعات أسلوب الحكيم في الحديث الشريف فهي تخص العبادات، و قد احتاجت إلى التفصيل، بين فيها الرسول -صلى الله عليه و سلم- بعض الأحكام، التي لم ترد في القرآن كلباس المحرم، و خروج المرأة يوم العيد... « فالسنة هي البيان النظري والتطبيق العملي للقرآن في ذلك كله ».³⁸⁷

ففي موضوع الحج مثلاً نجده -صلى الله عليه و سلم- يفصل للسائل جميع ما لا يجب حمله أثناء فترة الإحرام، ثم يؤيده عما سأل، و يبين له حكم لبس الخف عند عدم وجود النعل، فزاده بيان حالة الاضطرار.

و من مظاهر التفصيل في الأحاديث أيضاً، قوله -صلى الله عليه و سلم-: « لتلبسها صاحبها من جلبابها و لتشهد الخير و دعوة المؤمنين »³⁸⁸، فقد بين لها كيف تتصرف في هذه الحالة.

و صوّرت لنا هذه الأحاديث طبيعة العلاقة بين الرسول -صلى الله عليه و سلم-، و الناس في ذلك الوقت، لأن الحوار هو مباشر بينهم، و قد عكست جزءاً من الحياة آنذاك، « فالسنة بما تضمنته من أقوال و أفعال و تقارير و صفات النبي -صلى الله عليه و سلم- ترسم المنهاج التفصيلي للحياة الإسلامية، حياة الفرد المسلم، و الأسرة المسلمة، و الجماعة المسلمة في الدولة المسلمة ».³⁸⁹

إذن ما ميز أسلوب الحكيم في القرآن الكريم هو كون الأسئلة فيه عن أمور دقيقة (الأهلة)، أو غيبية (الروح، الساعة)، مهمة للسائلين (الأنفال، الإنفاق، الخمر)، أما الأسئلة في الحديث الشريف فتميزت أكثرها بالبساطة و السائلون

³⁸⁷- المرجع السابق- ص39.

³⁸⁸- صحيح البخاري- 287/1.

³⁸⁹- يوسف القرضاوي- "المدخل لدراسة السنة"- ص39.

كان قصدهم الاستفسار، و لم يكن قصدهم الجدال، و منه كانت أجوبة الرسول -صلى الله عليه و سلم- مقنعة لهم.

و اختلاف طبيعة مواضيع أسلوب الحكيم في الحديث النبوي الشريف عن مواضيعه في القرآن الكريم راجع إلى طبيعة السنة النبوية مع القرآن عامة فالسنة مع القرآن الكريم على ثلاثة وجوه.³⁹⁰

-قسم مؤكد و مؤيد لما جاء به القرآن، دون أن يضيف إليه تفصيلاً أو بياناً.

-قسم مبين للقرآن، إما بتفصيل ما أجمله، أو تخصيص ما عمّمه، أو تقييد ما أطلقه.

-قسم دلّ على حكم سكت القرآن عنه فلم ينفه و لم يثبتته.

و الأحاديث التي ذكرناها تدخل في هذه الأقسام الثلاثة:

فمن الأحاديث المؤكدة لما في القرآن الكريم: قوله -صلى الله عليه و سلم: (من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله)³⁹¹، فالقرآن الكريم أمر بالجهاد في سبيل الله في عديد من الآيات، فقال: ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّهُ سَبِيلُ اللَّهِ سَمِيعٌ خَلِيمٌ﴾³⁹²، و قوله -صلى الله عليه و سلم:- (أليس الذي أمشاه على الرجلين قادر على أن يمشيه على وجهه)³⁹³، أكّدت قدرة الله، و في القرآن تحدثت كثير من الآيات عن ذلك.

و في القسم الثاني يمكن إدراج الحديث الذي سئل فيه الرسول -صلى الله عليه و سلم- عن لباس المحرم، فقد فصل للرجل ما لا يجب حمله، و منه يبين أحد مناسك الحجّ و هو الإحرام، و هذا التفصيل غير موجود في القرآن الكريم.

³⁹⁰- عبد الله شحاتة "مفتاح السنة" ص12.

³⁹¹- صحيح البخاري- 139/2.

³⁹²- سورة البقرة- الآية 244.

³⁹³- صحيح البخاري- 132/4.

و ما يمكن إدراجه في القسم الثالث قوله للسيدة عائشة « لكن أحسن الجهاد

و أجمله الحجّ حجّ مبرور »³⁹⁴ ، فالقرآن لم يفرض الجهاد على المرأة كما أنه لم يجرمه عليها، لذا نجده -صلى الله عليه و سلم- يوجهها إلى أمر آخر و هو الحجّ.

3) من حيث الأبعاد:

يهدف كلّ من القرآن الكريم و الحديث النبوي الشريف إلى غاية واحدة رئيسية و سامية، و هي نشر الدين الإسلامي، و إظهار للناس بأنه الدين الصحيح و الحقيقي حتى يعملوا بأحكامه. و من أجل تحقيق هذه الغاية تعدّدت الوسائل، فراعى كل من القرآن الكريم و الحديث الشريف حالات الناس النفسية و الاجتماعية، و الثقافية.

في الآيات و الأحاديث التي كانت على طريقة أسلوب الحكيم، تعدّدت الأبعاد

و الغايات، و عموماً فقد اشتركت في أكثرها، و انفردت في بعضها. تشترك الآيات و الأحاديث التي ذكرناها في بعد عام رئيسي، و هو البعد الديني، لأنه كما قلنا غاية كل من القرآن و الحديث هو إرساء الدين الإسلامي، و تحقيق أحكامه.

فنجده عزّ و جلّ يدعو إلى الإيمان بالغيب، و كذا إلى إعمال العقل، و غير ذلك من أجل الوصول إلى معرفة الحق، فجزء كبير من الآيات التي ردّ فيها عن أسئلة مختلفة تتمحور حول العقيدة، من أجل ترسيخها.

فدعوته إلى الإيمان بالغيب حين أخفاه، و كذا دعوته إلى إعمال العقل، و لنظر في ملكوته يقتضي أمراً واحداً، و هو الإيمان به عزّ و جلّ و بوحدانيته.

³⁹⁴ - نفسه - 319/1.

و في الأحاديث جميع أقواله -صلى الله عليه و سلم- تهدف إلى تعليم الناس أحكام هذا الدين، فنجده -صلى الله عليه و سلم- يبين لهم منسك الإحرام، و فيه يتجرد الإنسان من جميع الشهوات و يخلص وجهه لله عزّ و جلّ، و يبين لهم أهميّة الحجّ، و حسن النية في الجهاد، و العمل للآخرة، و كلها أمور تخصّ علاقة الإنسان برّبه.

فجميع الأحاديث التي وردت عن الرسول -صلى الله عليه و سلم- هدفها ديني، و إن كانت بعضها تبدو و كأنها كلام عادي بينه و بين أصحابه إلا أنّها ترسم دائما منهجا دينيا صحيحا، سواء كان ذلك حول علاقة الإنسان برّبه أو علاقته بغيره.

وقد راعى القرآن الكريم كثيرا حالات الناس النفسية ، فالله عز و جل خالق البشر، و هو عالم بنفسياتهم و ما يطيب لهم و ما يسيئهم ،وقد أمر نبيه الكريم بأن يحسن التعامل مع عباده ، فيصبر عنهم و يرفق بهم، فقال عزّ و جلّ:

﴿وَلَوْ كُنْتُمْ فَضًا تَلِيظَ الْقُلُوبِ لَنَفَضُوا مِنْ حَوْلِكُمْ﴾³⁹⁵.

و نظرا لأهمية الجانب النفسي فقد اشترك في الآيات و الأحاديث التي ورد فيها أسلوب الحكيم ، فجميع الأجوبة التي ردّ فيها عزّ و جلّ عن أسئلة السائلين نلمس فيها بعدا نفسيا، ففي سؤا لهم عن الأهلة، يّين لهم أنّها مواقيت للناس و الحجّ، و لم يقل لهم مثلا أن أمر الأهلة دقيق و عظيم، فيحسّوا أنّهم عاجزين عن الإدراك و الفهم، و كذا لما سألوا عن بعض أمور الغيب، كسؤال مريم و زكريا عن منح الله لهما الولد.

و يظهر البعد النفسي أكثر في قوله عزّ و جلّ: ﴿قُلْ مَا أُنْفِقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلَّهِ الدِّينُ وَ الْأَقْرَبِينَ﴾³⁹⁶ ، فالله عزّ و جلّ لم يحدّد لهم ما يجب إنفاقه، و ترك

³⁹⁵- سورة آل عمران- الآية 159.

³⁹⁶- سورة البقرة- الآية 215.

لهم التصرف في ذلك مراعاة لنفسياتهم و مكانهم، فبعض المسلمين متحمسون للإنفاق، و لا تسمح لهم حالاتهم المادية بمنح الكثير، ثم تعزّ الأموال عند بعض الأغنياء، فلا يستطيعون إنفاقها بسهولة، و منه كان سياق الآية مرضيا لجميع الناس كما بيّن لهم المصرف، و فيه مراعاة للعلاقة بين الأفراد و عائلاتهم، فبدأ بذكر الوالدين، و هم أعز الناس، ثم ذكر الأقربين، و يتامى...

و كذا في قوله عزّ و جلّ: ﴿قُلْ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَاللرَّسُولِ﴾³⁹⁷، فلما رأى عزّ و جلّ تخاصم المسلمين و جدالهم حول الأنفال أخبرهم أن حكمها عند الله و الرسول -صلى الله عليه و سلم- حتى يطمئنوا و تهدأ نفوسهم.

و مثل هذا فعل عليه الصلاة و السلام فراعى نفسيات الناس في كل الأحيان، فنجده يجيب السائل عن القتال بأن كل من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا بأنه في سبيل الله، و لم ينف عليه جميع أنواع القتال التي ذكرها، و هذا الحديث يلتقي مع قوله عزّ و جلّ: ﴿قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ﴾³⁹⁸، في بعد مفاده أن الأعمال بالنيات، فالإنسان عندما يقرأ هذه الآيات و الأحاديث يطمئن، و يدرك أن الوصول إلى إرضاء الله عزّ و جلّ ليس صعبا، و إنما يتم ذلك بصفاء القلب و النية.

و قد كان -صلى عليه و سلم- يحسن تعامله مع من حوله، فكان يعلم الناس أحكام دينهم، بطريقة تحببهم إليها، فنجده يبعد فكرة الجهاد عن السيدة عائشة بطريقة أسعدتها لأنه ذكر لها قيمة الحجّ، و كذا حين أجاب المرأة التي سألت عن خروجها، و في جميع الأحاديث التي ورد فيها أسلوب الحكيم.

³⁹⁷- سورة الأنفال- الآية 1.
³⁹⁸- سورة البقرة- الآية 215.

فوجود الجانب النفسي في القرآن الكريم و الحديث الشريف هام جدا، لأن مواجهة أمة بأسرها بدين جديد أمر صعب جدا، و يتطلب مراعاة لحالات الناس و أطباعهم.

و للعلاقات الاجتماعية بين الأفراد أثر عظيم في بناء مجتمع متقدم، و قد حوى القرآن الكريم، و السنة النبوية الشريفة جانبا كبيرا منها.

ففي قوله عزّ و جلّ: ﴿قُلْ مَا أُنْفِقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ وَ الْيَتَامَى وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ﴾³⁹⁹، تصوير للعلاقة التي يجب أن تكون بين الفرد و والديه أولا ثم أقاربه، و المجتمع عامة، فالله عزّ و جلّ فرض الزكاة على عباده و في إخراجها فائدة للناس و المجتمع، و حثّ على الصدقة من غير زكاة فحبّتها إلى النفوس، و في الزكاة و الصدقة منافع كبيرة للمجتمع، فمن الناحية المادية هي تعين الفقراء على العيش، و من الناحية الاجتماعية هي توّطد العلاقة بين الأغنياء و الفقراء، فتعمّ المحبة بينهم، فديننا الحنيف محي فكرة الفروق الاجتماعية، فجعل للفقير حقا من مال الغني، و بهذا بين للغني أن كلّ ما يكسب ليس ملكا له، و إنما هو لله عزّ و جلّ، و فيه أيضا إفهام للفقير بأن الله قادر على رزقه كما رزق الغني، قال عزّ و جلّ: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَ يَحْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا﴾⁴⁰⁰.

وفي الصدقة تطهير لمال الغني، فالإنسان إذا ما تعود الصدقة أحسّ أن في ماله بركة، ثم جعل الله عزّ و جلّ لنفقة تخصّ الوالدين، و في هذا تأكيد على واجب رعاية الأبناء لهما، فقد أوصى بهما خيرا، و ذكرّ بهما الأبناء كل مرة، ثم جعلها للأقارب، و في ذلك توطيد للعلاقة بين أفراد العائلة ثم أفراد المجتمع.

³⁹⁹- سورة البقرة- الآية 215.

⁴⁰⁰- سورة الإسراء- الآية 30.

و مما نلمس فيه بعدا اجتماعيا أيضا قوله عزّ و جلّ: ﴿قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَ لِلرَّسُولِ﴾⁴⁰¹، فبين لهم عزّ و جلّ أن توكيل القسمة للرسول -صلى الله عليه و سلم- فيه منافع لهم، فهو أكثرهم صفاء و حكمة، و في هذا ضمان لحسن النظام و التفاهم..

كما كان -صلى الله عليه و سلم- يحرص دائما على نشر المحبة بين أفراد أمته، لأن المحبة أساس الاتحاد، فمن مظاهر ذلك قوله -صلى الله عليه و سلم-: « لتلبسها صاحبته من جلبابها »⁴⁰² ففي هذا الأمر دعوة إلى الاتحاد و التعاون بين الأفراد، و في كلامه عامة قيم اجتماعية و أخلاقية عمل على ترسيخها. ففي القرآن الكريم و الحديث النبوي الشريف جميع الجوانب التي تضمن حسن العيش من أخلاق و علاقات اجتماعية و معاملات.

و قد كثر في الآيات التي ذكرناها هدف "إثارة ملكة التطلع"، و لم نجد هذا البعد إلا في حديث واحد، في قوله -صلى الله عليه و سلم-: « أليس الذي أمشاه على الرجلين قادر على أن يمشي على وجهه »⁴⁰³، و لعل ذلك راجع إلى أن القرآن الكريم موجّه إلى جميع الأمم في كل زمان و مكان، من أجل هذا خاطب العقل و حثّه على التفكير، لأن العقل هبة رزقها الله لنا، و لجميع الأمم في سائر العصور، و هو الذي يوصلنا إلى معرفة الحقّ من غير حاجة إلى الرسل و المعجزات.

كما أخفى الله عزّ و جلّ أمر الأهلة، و تحريم الخمر، لمقصد ذكرناه و هو "عدم ارتقاء العقل البشري"، لأن الناس آنذاك لم يكونوا مستعدين لاستقبال علم الأهلة، أو تقبل تحريم الخمر، و الله عزّ و جلّ كان محيطا بأحوالهم. و هذا المقصد لم نجده في الأحاديث التي تناولناها.

⁴⁰¹ - سورة الأنفال- الآية 1.

⁴⁰² - صحيح البخاري- 287/1.

⁴⁰³ - نفسه- 132/4.

و في الأحاديث التي ذكرنا نجد أهدافا عملت على رسم الحياة المثلى للبشر، فبينت الأنسب للمرأة مثلا، و بينت أيضا سبل تكثير الخير و التكافل الاجتماعي بين البشر، كما دعت إلى محبة الله و خلوص النية.

ما ميّز الأحاديث أيضا هو وجود تنوع بين خاصيتي الترغيب و الترهيب، و الهدف من ذلك كما رأينا هو دفع الناس إلى الاجتهاد و العمل الصالح، أما في القرآن فقلت تلك الخاصة، و قد يعود سبب ذلك إلى طبيعة الأسئلة في كل منهما، و في طبيعة السائلين أيضا، ففي أحاديث الترغيب و الترهيب السائلون هم مسلمون سألوا عن أمور إما تخيفهم كسؤالهم عن حشر الكافر، و عن وقت الساعة، أو عن أمور يتشوقون إليها كرؤية الله عزّ و جلّ.

أما في القرآن الكريم، فالسائلون عن أمور الغيب منكرون، و منه كان الجواب برفع إنكارهم، و لم يوجد داعي إلى ترهيبهم و حثهم إلى العمل الصالح، أو هم مسلمون سألوا عن بعض المعاملات.

لكن هناك آية نلمس فيها ترهيبا للمسلمين من أجل العودة إلى طبيعتهم و هي آية الأنفال، حيث نزع الله منهم حكم تقسيم الأنفال، و أعطاهم للرسول - صلى الله عليه و سلم-، ثم أمرهم بتقوى الله بعد أن ساءت أخلاقهم، و إصلاح أنفسهم، و في ذلك تخويف لهم من سوء عملهم ممّا جعلهم يتوبون إلى الله، و يندمون على ما صدر منهم.

4) من حيث الخصائص الأسلوبية:

يعتمد أسلوب الحكيم على عدم مطابقة الجواب للسؤال، و منه كان السؤال عنصرا أساسيا في تحقيقه، لأنه لا بد من فهمه و معرفة قصد السائل، حتى يدرك مطابقة الجواب له أم لا.

و لاعتماده على السؤال و الجواب، فلا بد من وجود طرفين فيه هما السائل و المجيب في الأحاديث التي ذكرنا جرى الحوار بين أناس مسلمين، و الرسول - صلى الله عليه و سلم- ، فكان الخطاب مباشرا بينهم.

أما في الآيات فأكثر الأسئلة كانت موجهة إلى الرسول -صلى الله عليه و سلم-، و قد أوحى الله عليه بما يجب قوله، فكان الله عزّ و جلّ هو المجيب، و لكن الرسول -صلى الله عليه و سلم- هو الناقل لتلك الإجابات.

و نجد بعض الأسئلة وجهت إلى الله عزّ و جلّ، كسؤال السيدة مريم، و سيدنا زكريا، و سؤال الملائكة، و الردّ كان طبعاً منه عزّ و جلّ، إما وحيًا أو مباشرة -و الله أعلم-.

كما ينقل لنا الله عزّ و جلّ على لسانه العظيم حوار سيدنا موسى مع فرعون، حيث وقع أسلوب الحكيم في جواب موسى عليه السلام.

ميّز أسلوب الحكيم في كلّ من القرآن الكريم و الحديث النبوي الشريف خصائص مختلفة: ففي الحديث الشريف ورد الاستفهام على لسانه -صلى الله عليه و سلم- حيث نجده يردّ في بعض الأحيان بطرح سؤال آخر، كما فعل عندما سئل عن الساعة، و عن رؤية الله عزّ و جلّ، و حشر الكافر، كما جاء على صيغة الأمر.

أما في القرآن الكريم فجميع الأجوبة التي ردّ بها الله عزّ و جلّ، هي خبرية سواء تلك التي أملاها على نبيّه الكريم، أو تلك التي ردّ بها على الملائكة، و كذا الإجابات التي نقلها الله عزّ و جلّ لنا من حوار موسى مع فرعون.

و مجيء أسلوب الحكيم على صيغة الخبر في الأجوبة التي أملاها الله عزّ و جلّ على نبيّه ليقولها، تمنح الكلام نوعاً من الاستقرار، فتقطع فضول السائل نهائياً، فالسامع لقوله عزّ و جلّ: ﴿الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾⁴⁰⁴ ، ﴿لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي

⁴⁰⁴ - سورة الإسراء- الآية 85.

ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴿٤٠٥﴾ ، يدرك أنه لا مجال للنقاش أو السؤال ثانية، فهذه الإجابات هي نهائية، أما في استخدام الاستفهام في قوله -صلى الله عليه وسلم- و ماذا أعددت لها، الإجابة غير قطعية للسؤال، فرغم أن المعنى واضح بأن هذا السؤال غير مناسب، إلا أنه قد يأتي إنسان آخر قد سمع هذه الإجابة، و يطرح السؤال مرة ثانية.

و لعلّ إجابة الرسول -صلى الله عليه وسلم- بهذه الطريقة راجع إلى أن أمر الغيب مفصول فيه في القرآن الكريم، فكان من المناسب أن يستغلّ هذا السؤال لتوجيه السائل إلى ما ينفعه.

مما ميّز أيضا بعض الآيات التي ذكرنا عدم مشاكلة الجواب السؤال من ناحية التركيب حيث وقع السؤال جملة فعلية و الجواب بجملة اسمية، كسؤال الملائكة عن خلق الإنسان، و سؤال السيدة مريم و سيّدنا زكريا، كما شاكله في آيات أخرى عند السؤال عن العظام، و عن الله، و ماهية الأهله.

أما في الحديث الشريف فقد شاكل الجواب السؤال في التركيب ف جاء جملة فعلية لما كان السؤال كذلك، و اسمية حيث كان السؤال جملة اسمية.

و من الخصائص التي وجدت أيضا في الآيات التي ذكرنا: خاصية التقديم و التأخير، حيث كثيرا ما قدّم ما حقّه التأخير، كتقديم الخبر على المبتدأ في آية الخمر:

﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنَافِعٌ لِلنَّاسِ﴾⁴⁰⁶ ، و تقديم المفعول الثاني على الأول، و كذا تقديم بعض الكلمات التي لها اختصاص بدرجة التقدم في الذكر، كتقديم الضرّ على النفع، و الإثم على المنافع.

⁴⁰⁵- سورة يونس- الآية 49.

⁴⁰⁶- سورة البقرة- الآية 219.

أما في الحديث الشريف فلم نتحدث عن هذه الخاصية لأن جميع الرتب كانت محفوظة، لكن لاشك أن هذه الأحاديث لم تخل من القسم الثاني للتقديم الذي يختصّ بدرجة التقدم في الذكر، فترتيب الكلمات و وضعها في تلك الأماكن كان لأسباب و ظروف أوجبت ذلك، و لكن أمر هذا التقديم دقيق و صعب استخلاص بعض المعاني منه.

و الخاصية الأخرى في الآيات التي ذكرنا هي "الحذف و الذكر"، حيث ذكرت بعض الكلمات التي لها أهمية خاصة، و كان بالإمكان حذفها، لأن التركيب لا يختل، مثل ذكر الحجّ في آية الأهلّة، و ذكر اسم الجلالة "الله" في آية الأنفال، و في الحذف حذف المسند إليه في قوله: ﴿رَبُّنَا الَّذِي أَمْطَرَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾⁴⁰⁷.

و في الحديث الشريف لم نتعرض لهذه الخاصية، ذلك أننا لم نر حذفاً في الجمل، و لكن تحدثنا عن الإيجاز، و الذي هو نوع من الحذف، فالإيجاز معناه حذف زيادات الألفاظ، و الإيجاز ليس معناه قصر الكلام، فقد يطول الكلام، و مع ذلك هو موجز، و في إخباره -صلى الله عليه و سلم- عمّا لا يلبس المحرم طالت العبارة نوعاً ما، و لكنها موجزة لأنه لو أجاب عن السؤال المطلوب لطال الأمر أكثر، و كذا في جوابه على الرجل الذي سأل عن أنواع القتال إذ نجده يعدل عن جميعها بذكر معنى جامع و مختصر.

و قد تحدّثنا في الحديث أيضاً عن أسلوب القصر لاحتواء أحد النماذج على أداة القصر "إنّما" التي لها جمالية معينة و أثر خاص في المعنى، أما في القرآن الكريم فلم نذكره لخلو الآيات من أدوات القصر، أما القصر عن طريق تقديم ما حقّه التأخير، فقد وجد في تقديم شبه الجملة "فيهما" على الإثم، و قد كنا تحدّثنا عن ذلك في جمالية التقديم في تلك الآية.

⁴⁰⁷- سورة طه- الآية 49.

أمّا ظاهرة الفصل و الوصل فقد اشتركت في كلّ من الآيات و الأحاديث التي ذكرناها، و قد كان لها تأثير خاص في جمالية المعنى، نتيجة فصل الجمل أحيانا، و وصلها أحيانا أخرى.

هذه الخصائص التي ذكرنا لا تعكس جميع ما ميّز نماذج أسلوب الحكيم في القرآن الكريم و الحديث النبوي الشريف، فلاشكّ من أن الآيات و الأحاديث أكثر غنى ممّا ذكرناه، ثم لا بدّ من وجود أسرار بلاغية غير تلك التي رأيناها في كل خاصية، فكثيرا ما نحسّ بجمال الآية أو الحديث، و لكن يعسر علينا استخراج موطن ذلك الجمال و سره.

تلخيص بعض نقاط أسلوب الحكيم في كل من القرآن الكريم

و الحديث الشريف:

حتى تسهل على القارئ فهم ما ذكرناه في هذا البحث نحاول أن نجتمع

أهم نقاطه

في جداول:

الهدف منه	سبب وقوع أسلوب الحكيم	الانتقال من معنى السؤال إلى الجواب	الآية
لابد من الإيمان بأن علم الغيب عند الله فقط.	الاستفهام عن أمر غيبي و غير ممكن حصول جوابه.	السؤال عن سبب خلق الإنسان، و الجواب بتذكير الملائكة بعلم الله المطلق.	﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَ نَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَ نُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة: 30
قطع فضول السائلين إثارة ملكة التطلع إلى الكون.	أمر الأهله دقيق و الناس عاجزون عن فهم حقيقتها.	السؤال عن ماهية الأهله و الجواب بذكر فائدتها.	﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتٌ لِلنَّاسِ وَ الْحَجِّ﴾ البقرة 189
تبيان أن الأعمال بالنيات و أهمية الإنفاق على الوالدين و الأقارب...	وقوع الصدقة في موضعها أهم من نوع الإنفاق أو قدره.	السؤال عن نوع الإنفاق و الجواب ببيان المصرف.	﴿يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَ الْأَقْرَبِينَ وَ الْيَتَامَى وَ الْمَسَاكِينِ وَ ابْنِ السَّبِيلِ وَ مَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾ البقرة 215

<p>تنفير الناس من الخمر وتهيئتهم لتقبل تحريم الخمر.</p>	<p>الناس غير مستعدين لتقبل تحريم الخمر.</p>	<p>السائلون يريدون معرفة تحريم الخمر أم لا، و الجواب بذكر منافع و أضرار الخمر.</p>	<p>﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَ الْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَ مَنَافِعٌ لِلنَّاسِ وَ إِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾ البقرة: 219.</p>
<p>رفع التعجب، و التأكيد على قدرة الله.</p>	<p>السؤال عن أمر غيبي و فيه استغراب.</p>	<p>السؤال عن كيفية منح الولد و الجواب كان بالتذكير بقدرة الله العظيمة.</p>	<p>﴿قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَ قَدْ بَلَغَنِي الْكِبَرُ وَ امْرَأَتِي عَاقِرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ﴾ آل عمران: 40</p>
<p>رفع الإنكار و التعجب و التأكيد على قدرة الله.</p>	<p>السؤال عن أمر غيبي، و فيه تعجب و إنكار.</p>	<p>السؤال عن كيفية منح الولد من غير أب، و الجواب بالتذكير بقدرة الله.</p>	<p>﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَ لَدَّ وَ لَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ﴾ آل عمران: 47</p>
<p>التذكير بأن كل شيء ملك لله، و رفع الجدال بينهم.</p>	<p>وقوع جدال بين المهاجرين و الأنصار حول الغنائم.</p>	<p>السؤال عن حكم قسمة الأنفال أهى للمهاجرين أم الأنصار و الجواب بذكر أن ملكها لله و الرسول.</p>	<p>﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَ الرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَ أَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾ الأنفال: 1</p>
<p>الإيمان بوجود الغيب عند الله فقط، و أنه لا فائدة في هذا السؤال. إيقاف تعنت الكافرين.</p>	<p>السؤال عن أمر غيبي.</p>	<p>السؤال عن وقت الساعة و الجواب بأن السائل لا يملك ضرا و لا نفعا لنفسه.</p>	<p>﴿وَ يَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ، قُلْ لَا أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَرًّا وَ لَا نَفْعًا إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ﴾ يونس: 48-49</p>
<p>التأكيد بأن علم الغيب عند الله، و أن الإنسان عاجز عن معرفة حقيقة نفسه.</p>	<p>السؤال عن أمر غيبي، غرضه الإيقاع بالنبى - صلى الله عليه و سلم-.</p>	<p>السؤال عن ماهية الروح و الجواب بالإخبار أنها من أمر الله.</p>	<p>﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي﴾ الإسراء: 85</p>

<p>ردع تعنت فرعون و إثارة ملكة التطلّع.</p>	<p>السؤال عن أمر غيبي و فيه استهزاء و إنكار لوجود الله.</p>	<p>السؤال عن ماهية الله عزّ و جلّ و الجواب بتبيان ملكوته و قدرته.</p>	<p>﴿قَالَ فَمَنْ رَبُّكُمْ يَا مُوسَى قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى﴾ طه: 49-50</p>
<p>التأكيد على علم الله الغيب و حفظه جميع الأمر في كتاب الغيب، و قطع فضول السائلين.</p>	<p>سؤال عن أمر غيبي فيه فضول من السائلين.</p>	<p>السؤال عن أحوال القرون الأولى و الجواب بذكر أن الله حافظ لأحوالها في كتاب الغيب.</p>	<p>﴿قَالَ فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى، قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى﴾ طه: 51-52</p>
<p>ردع تعنت فرعون إثارة ملكة التطلّع.</p>	<p>سؤال عن أمر غيبي قصده إنكار وجود الله.</p>	<p>السؤال عن ماهية الله و الجواب بذكر ملكوته.</p>	<p>﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ، قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الشعراء: 23-24</p>
<p>التأكيد على قدرة الله إثارة ملكة التطلّع.</p>	<p>لا مجال للشكّ في إعادة إحياء العظام.</p>	<p>السؤال إنكار لقدرة إحياء العظام و الجواب بذكر الخالق.</p>	<p>﴿قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَ هِيَ رَمِيمٌ، قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ يس: 78</p>

الهدف منه	سبب وقوع أسلوب الحكيم	الانتقال من معنى السؤال إلى الجواب	الحديث من صحيح البخاري
تسهيل على السائل لاستيعاب و رفع الالتباس حتى لا يظن أن اللباس خاص بالمحرم.	ما لا يلبس المحرم محدود و ما يلبس غير محدود.	السؤال عما يلبس المحرم و الجواب بما لا يلبس.	ما يلبس المحرم؟ فقال: لا يلبسُ القَمِيصَ و لا العَمَامَةَ و لا السَّرَاوِيلَ و لا البُرُتْسَ و لا ثَوْبَا مَسَّهُ الوَرَسُ أو الزَعْفَرَانُ. صحيح البخاري: 38/1.
مراعاة رغبتها و رغبة جميع النساء في الخروج.	رغبة المرأة في الخروج و عدم امتلاكها جلباب.	السؤال عن إمكانية خروجها أم لا، و الجواب ببيان كيف تتصرف.	هل على إحدانا بأس إن لم يكن لها جلباب أن لا تخرج، قال لتلبسها صاحبيتها من جلبابها و لتشهد الخير و دعوة المؤمنين. صحيح البخاري: 287/1.
إبعاد فكرة الجهاد عن المرأة، و إقناعها بقيمة الحجّ العظيمة.	أفضلية الحجّ على الجهاد بالنسبة للمرأة.	السؤال عن إمكانية الغزو و الجواب بالإخبار أن الحجّ أحسن من الجهاد.	قلته يا رسول الله ألا نغزوا و نجاهد معكم فقال: لكنّ أحسن الجهاد و أجمله الحجُّ حجٌّ مبرور. صحيح البخاري: 319/1.
إفادة السائل بما هو أهم.	السؤال عن أمر غيبي، و فيه فضول من السائل.	السؤال عن وقت الساعة و الجواب بسؤال آخر، فهو عن إعداد العمل لها.	قال: متى الساعة؟ قال: و ما ذا أعددتَ لها؟ صحيح البخاري: 295/2.
إدراك أن العمل لا بد له من نيّة صادقة و خالصة لله عزّ و جلّ.	جميع أنواع القتال التي ذكرها لا تؤدي الغرض المطلوب.	السؤال عن أي أنواع القتال التي ذكرها هي في سبيل الله، و الجواب ذكر نوع لم يرد في السؤال.	قال: الرجل يقاتل للمغنم و الرجل يقاتل للذكر و الرجل يقاتل ليبري مكانه، فمن في سبيل الله قال من قاتل لتكون

			<p>كَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا فَهِيَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ. صحيح البخاري: 139/2.</p>
<p>رفع الاستغراب، و التأكيد على قدرة الله العظيمة.</p>	<p>في السؤال استغراب.</p>	<p>السؤال عن كيفية حشر الكافر، و الجواب بذكر قدرة الله العظيمة.</p>	<p>يا نبي الله كيف يحشر الله الكافر على وجهه؟ قال: أليس الذي أمشاه على الرجلين في الدنيا قادرًا على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة . صحيح البخاري: 132/4.</p>
<p>الترغيب في العمل و الاجتهاد، حتى ننال ذلك النعيم.</p>	<p>في السؤال تشوق لهذه الرؤية، و منه كان الجواب بذكر كيفية هذه الرؤية بأنها دون تعب و مشقة.</p>	<p>السؤال عن رؤية الله يوم القيامة، و الجواب بذكر كيفية هذه الرؤية.</p>	<p>يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة؟ فقال: هل تضارون في الشمس ليس دونها سحاب؟ قالوا: لا يا رسول الله، قال: هل تضارون في القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب، قالوا: لا يا رسول الله. قال: فإنكم ترونه يوم القيامة كذلك. صحيح البخاري: 140/4.</p>
<p>الترغيب في الاتصاف بخلق الرحمة.</p>	<p>التنويه بخلق الرحمة.</p>	<p>السؤال عن بكاء الرسول -صلى الله عليه و سلم- و الجواب بذكر رحمة الله العباد الرحماء.</p>	<p>قال سعد بن عباد: أتبكي؟ فقال: إنما يرحم الله من عباده الرحماء. صحيح البخاري: 288/4.</p>

خصوصية أسلوب الحكيم

في الحديث

في القرآن

- وجود سؤالان عن الغيب فقط: واحد عن حشر الكافر و الثاني عن وقت الساعة.

- أكثر المواضيع خصت العبادات، و الباقي منها كانت حول يوم القيامة.

- جميع السائلين هم أناس مسلمون، و قصدهم الاستفسار عن بعض الأمور، أو انتابهم الفضول عن أمور غيبية.

- كثرة الأسئلة عن أمور غيبية (الساعة، الروح، الخلق، إحياء العظام، ماهية الله عزّ و جلّ، و انحراف الإجابة إلى ردّ علمها إلى الله عزّ و جلّ و بيان قدرته.

- تميّزت باقي الأسئلة أنّها عن أمور دقيقة و عظيمة (الأهلة)، أو ذات أهمية خاصة (الحمر، الإنفاق، الأنفال)، و أكثرها تخص المعاملات.

- السائلون هم إما مسلمون قصدوا الاستفسار عن أمور تهمهم أو انتابهم الفضول عن أمور غيبية، أو كفرون قصدوا التعتت و الاستهزاء، و سؤال الملائكة كان تعجبا.

حيث المواضيع

- بعد ديني تعليمي في الأحاديث لاشترك الغاية.

- بعد نفسي نلمسه في حسن تعامله - صلى الله عليه و سلم-، و مراعاته لنفسيات السائلين.

- بعد اجتماعي غرضه تكثير سبل الخير

- بعد ديني تعليمي في جميع الآيات، لأن الغرض منها هو ترسيخ العقيدة في النفوس و العمل بأحكامها.

- بعد نفسي في كثير من الآيات: (الإنفاق، الأنفال).

من حيث الأبعاد

- بعد اجتماعي غرضه نشر المحبة بين

<p>و التكافل الاجتماعي، في ردّه على من سألت الخروج يوم العيد.</p>	<p>الناس في آية الإنفاق، و آية الأنفال.</p>	
<p>-تنوع بين الخبر و الإنشاء، و كثرة ظاهرة الاستفهام في الأجوبة. -وجود أيضا تنوع. -خلو الأحاديث من النوع الأول للتقديم، و صعوبة استخراج نماذج من النوع الثاني. -عدم وجود حذف لكلمات، و لكن أكثر الأحاديث موجزة، تحمل معان كثيرة.</p>	<p>-جميع الأجوبة جاءت خبرية -تنوع الأجوبة بين الجمل الاسمية و الفعلية. -وجود ظاهرة التقديم و التأخير بنوعيتها. -ذكر بعض الكلمات التي لها أهمية خاصة في المعنى مع إمكانية حذفها، و حذف بعضها.</p>	<p>من حيث الخصائص الأسلوبية</p>
<p>-اختلاف الإجابة عن السؤال الذي هو عن لساعة في كل من القرآن و الحديث. -الإجابة تعكس طبيعة السؤال و السائل معا. -تشابه الإجابة في كل من الحديث و القرآن الكريم عند السؤال عن الحشر و العظام. -اشترك الأبعاد بصفة عامة، و انفراد بعض الأهداف في كل منها. -تنوع الخصائص الأسلوبية في كل من الآيات و الأحاديث.</p>		<p>نتائج</p>

الخطاتفة

- بعد انتهائنا من هذا البحث نذكر بأهم النقاط و الاستنتاجات التي استخلصناها:
- يبنى أسلوب الحكيم على عدم مطابقة الجواب للسؤال، و هذا ما جعله صورة من صور خروج الكلام عن مقتضى ظاهره، لأن معنى الخروج هو كون الكلام غير مطابقا للواقع، و أن يكون في الكلام تأويلا و توجيها، و في أسلوب الحكيم يقصد المجيب معنى لم يرده السائل.
 - لم يعرف أسلوب الحكيم تصنيفا واحدا في كتب البلاغة، حيث عالجها بعض البلاغيين في علم المعاني، عند حديثهم عن أحوال المسند إليه، و البعض الآخر جعلوه ضمن علوم البديع، و عدم الاتفاق هذا يعكس تشابك و نداخل المباحث البلاغية .
 - لم يحظ هذا الفن بالاهتمام الوافي، حيث اقتصر البلاغيون على تكرير التعريف الذي وضعه السكاكي، و لم يتناولوه بالتفصيل و ثم نجد كثيرا من المتأخرين لم يذكروه، و سبب ذلك هو ظهور فن القول بالموجب الذي التبس معه.
 - يقع هذا الأسلوب لأسباب مختلفة منها: كون السائل قصده التعنت، أو كونه أعجز من أن يفهم الجواب، أو رغبة من المتكلم في الإيجاز أو عدم المجاهدة، و هذه الأسباب تمثل حالات و مقامات مختلفة سواء تخص السائل أو المجيب، فهذا الأسلوب يمثل جوهر البلاغة في مراعاة المقامات.
 - لأسلوب الحكيم أهميات كبيرة في مراعاة الحالات النفسية، فهو يتخذ مسارا يوافق الاستعداد النفسي و الفطري لدى المتلقي، إضافة إلى ذلك فهو طريق للمجادلة الحسنة.

- إن اقتران كلمة أسلوب بالحكيم في هذا الفن لم ما يبرره، لأن كلمة أسلوب لها خصائص مختلفة عند الأسلوبين، وهذه الخصائص تنطبق مع مفهوم هذا الفن بصفة عامة، ثم جاءت كلمة الحكيم لتخصص أكثر و تبين مفهومه، كما أن استفادة الأسلوبين من البلاغيين القدامى في إرساء أسس علم الأسلوب واضح جدا من عرضنا لتلك المفاهيم عندهم.
- جاء أسلوب الحكيم في القرآن الكريم بمواضيع مختلفة و قد عكست هذه المواضيع جزءا مما حوى القرآن الكريم بصفة عامة.
- كثرت أبعاد أسلوب الحكيم و أهدافه في القرآن الكريم، و هذا يعكس قيمة كلامه عز و جل الذي هو كله مقاصد و أسرار.
- جسد أسلوب الحكيم في القرآن الكريم ما ذهبنا إليه في دراستنا النظرية له حيث رأينا كيف أثار الله عزّ و جلّ ملكة التطلع للسائلين عن الأهله، و كذا كيف كان طريقا للجدال الحسن، حين نقل الله لنا حوار سيدنا موسى مع فرعون.
- استعمال أسلوب الحكيم في القرآن الكريم كان مراعاة لعدة جوانب في السائلين، سواء حالاتهم النفسية أو الاجتماعية، أو الثقافية، فنرى كيف أنه عز و جل أخفى عنهم أمر الأهله مراعاة لمستواهم الفكري، و كذا كيف بين لهم أهمية إصابة النفقة موضعها مراعاة لحالاتهم الاجتماعية.
- تميزت الآيات التي كانت على طريقة أسلوب الحكيم بخصائص أسلوبية كثيرة، زادت من جماليتها و تأثيرها في القارئ.
- أما الأحاديث التي كانت على طريقة أسلوب الحكيم فقد تميزت بكثرة المواضيع، و هي تخص في مجملها العبادات والمعاملات.

- تميزت هذه الأحاديث أيضا بكثرة الأبعاد و تنوعها.
- عكست هذه المواضيع و الأبعاد طبيعة العلاقة بين الرسول -صلى الله عليه و سلم- و الناس آنذاك، و أعطت لنا صورة لحسن التعامل بين الأفراد.
- اشترك كثير من الأبعاد و الغايات في كل الآيات و الأحاديث التي ذكرنا، و لأسلوب الحكيم في كل منهما خصوصياته، و قد ذكرنا ذلك بالتفصيل في المقارنة.

قائمة

المصادر والمراجع

قائمة المصادر و المراجع

- * القرآن الكريم.
- * عبد الله محمد بن إسماعيل البخاري - صحيح البخاري - دار المعرفة - بيروت - د.ت.
- 1- أبو الحسين أحمد بن فارس:
- * الصاجي في فقه اللغة العربية - تحقيق أحمد حسن بسج - دار الكتب العلمية - بيروت - لبنان - 1997.
- * معجم مقاييس اللغة - تحقيق عبد السلام محمد هارون - دار الجليل - بيروت - 1991.
- 2- أبو عثمان بحر بن الجاحظ - "البيان و التبيين" - تحقيق درويش جويدي - المكتبة العصرية - صيدا - بيروت - 2001.
- 3- أبو عبد الله محمد بن أحمد القرطبي - "الجامع لأحكام القرآن" - دار الكتب العلمية - لبنان - د.ت.
- 4- أبو الفتح ضياء الدين بن الأثير - "المثل السائر في أدب الكاتب و الشاعر" - تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد - المكتبة العصرية - صيدا - بيروت - 1990.
- 5- أبو الفضل جمال محمد بن مكرم بن منظور - "لسان العرب" - دار صادر - بيروت - ط3 - 1994.
- 6- أبو الفضل شهاب الدين الشافعي - "فتح الباري شرح البخاري" - دار إحياء التراث العربي - بيروت - ط3 - 1985.
- 7- أبو القاسم جار الله الزمخشري - "الكشاف عن حقائق التنزيل و عيون الأقاويل في وجوه التأويل" - دار الفكر - د.ت.
- 8- أبو محمد الحسن بن مسعود البغوي - "شرح السنة" - تحقيق علي معوض - عادل أحمد عبد الموجود - دار الكتب العلمية - بيروت - 1992.

- 9- أبو منصور الثعالبي- "فقه اللغة و سر العربية"- تحقيق أمّلين نسيب- دار الجليل- بيروت- د.ت.
- 10- أبو يعقوب يوسف السكاكي- "مفتاح العلوم"- دار الكتب العلمية- بيروت- لبنان- د.ت.
- 11- أحمد إبراهيم موسى- "الصبغ البديعي في اللغة العربية"- دار الكتاب العربي- ط2- 1969.
- 12- أحمد جمال العمري- "المباحث البلاغية في ضوء قضية الإعجاز"- مكتبة الخانجي- القاهرة- 1990.
- 13- أحمد خليل- "المدخل إلى دراسة البلاغة العربية"- دار النهضة العربية- بيروت- لبنان- 1998.
- 14- أحمد شامية- "خصائص العربية و الإعجاز القرآني"- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- 1995.
- 15- أحمد الشايب- "الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب الأدبية"- مكتبة النهضة- مصر- 1966.
- 16- أحمد مطلوب- "معجم المصطلحات البلاغية و تطورها"- مكتبة لبنان- ط2- 1996.
- 17- بدر الدين أبو محمد العيني- "عمدة القارئ شرح صحيح البخاري"- دار الفكر- د.ت.
- 18- بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي- "البرهان في علوم القرآن"- تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم- دار الجبل- د.ت.
- 19- بسيوني عبد الفتاح فيود:
* "علم المعاني دراسة بلاغية و نقدية لمسائل المعاني"- مؤسسة المختار- القاهرة- ط2- 2000.

- * "من بلاغة النظم القرآني" - مطبعة الحسين الإسلامية-1992.
- 20- بكري شيخ أمين- "التعبير الفني في القرآن الكريم"- دار العلم-1994.
- 21- تمام حسان- "اللغة العربية معناها و مبناها"- عالم الكتب- القاهرة- ط3-1998.
- 22- جلال الدين أبو عبد الله محمد القزويني:
- * "الإيضاح في علوم البلاغة"- تحقيق عبد الحميد هنداوي- مؤسسة المختار القاهرة- ط3-2003.
- * "التلخيص في علوم البلاغة"- تحقيق عبد الرحمن البرقوقي- دار الفكر العربي- 1914.
- 23- جلال الدين السيوطي:
- * "الإتقان في علوم القرآن"- دار الفكر- بيروت- لبنان- 1996.
- * "المزهر في علوم اللغة و أنواعها"- تحقيق محمد أحمد جاد المولى- دار الجيل- بيروت.
- 24- حسن طبل- "أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية"- دار الفكر العربي- القاهرة- 1998.
- 25- ديريزة سقال- "علم البيان بين النظريات و الأصول"- دار الفكر العلم- لبنان- 1997.
- 26- ديوان جرير- دار صادر- بيروت- د.ت.
- 27- ديوان الحطيئة- دار صادر- بيروت- د.ت.
- 28- ريمون طحان- "الألسنة العربية"- دار الكتاب اللبناني- بيروت- لبنان- ط2-1981.
- 29- سعد مصلوح- "الأسلوب دراسة لغوية إحصائية"- عالم الكتب- القاهرة- ط3-1992.
- 30- سعيد إسماعيل علي- "القرآن رؤية تربوية"- دار الفكر العربي-2000.

- 31- السيد الجميلي - "الإعجاز العلمي في القرآن" - شركة الشهاب - الجزائر - د.ت.
- 32- سيد قطب - "في ظلال القرآن" - دار الشروق - توزيع مكتبة النجاح - بني سويف - ط17 - 1990.
- 33- شفيح السيد - "البحث البلاغي عند العرب تأصيل و تقييم" - دار الفكر العربي - ط2 - 1996.
- 34- شوقي ضيف - "البلاغة تطور و تاريخ" - دار المعارف - القاهرة - ط11 - د.ت.
- 35- صالح بلعيد - "نظرية النظم" - دار همومة - الجزائر - 2002.
- 36- صفى الدين الحلبي - "شرح الكافية البديعية في علوم البلاغة و محاسن البديع" - تحقيق شيب نشاوي - ديوان المطبوعات الجامعية - الجزائر - د.ت.
- 37- صلاح فضل - "بلاغة الخطاب و علم النص" - مكتبة لبنان - لوزحمان - 1996.
- 38- عبد الباري طه سعيد - "أثر التشبيه في تصوير المعنى" - قراءة في صحيح مسلم - 1992.
- 39- عبد الحميد بن باديس - "مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير" - دار البعث - قسنطينة - 1982.
- 40- عبد العال سالم مكرم - "أثر العقيدة في بناء الفرد و المجتمع" - مؤسسة الإسراء - قسنطينة - ط2 - د.ت.
- 41- عبد العزيز عتيق:
- * "علم البديع" - دار النهضة العربية - بيروت - 1985.
- * "في تاريخ البلاغة العربية" - دار النهضة العربية - بيروت - لبنان - د.ت.
- 42- عبد العزيز قليقطة - "البلاغة الإصلاحية" - دار الفكر العربي - ط2 - 1992.

- 43- عبد القاهر الجرجاني- "دلائل الإعجاز"- تحقيق محمد شاكر- مطبعة المدني- مصر- ط3-1992.
- 44- عبد اللطيف شريفى-دارقى زبىر- "الإحاطة فى علوم البلاغة"- ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- 2004.
- 45- عبد الله بن المعتز- "علم البديع"- تحقيق إغناطيوس كراتشفسكى- دار المسيرة.
- 46- عبد الله شحاتة- "مفتاح السنة"- مطبعة جامعة القاهرة- 1986.
- 47- عبده الراجحى- "التطبيق النحوى"- دار النهضة العربية- بيروت- د.ت.
- 48- على الجارمت- مصطفى أمين- "البلاغة الواضحة مع دليلها"- ديوان المطبوعات الجامعية- وهران- د.ت.
- 49- على فضل الله- "الأخلاق الإسلامية"- دار مكتبة الحياة- بيروت- د.ت.
- 50- عماد الدين بن كثير- "تفسير القرآن العظيم"- دار مكتبة الهلال- لبنان- 1990.
- 51- فاضل صالح السمراىى- "الجملة العربية و المعنى"- دار ابن حزم- بيروت- لبنان- 2002.
- 52- محمد الأمين بن محمد المختار- "أضواء البيان فى إيضاح القرآن بالقرآن"- تحقيق صلاح الدين العلابىى- دار إحياء التراث العربى- لبنان- د.ت.
- 53- محمد بن أبى بكر بن عبد القادر الرازىى- "التفسير الكبير"- دار إحياء التراث العربى- بيروت- ط3.
- 54- محمد صالح الصديق:
- * "البيان فى علوم القرآن"- المؤسسة الوطنية للكتاب- الجزائر- 1989.
- * "مقاصد القرآن"- دار البعث- قسنطينة- الجزائر- ط2- د.ت.

- 55- محمد الصغير بناني- "النظريات اللسانية و البلاغية و الأدبية عند الجاحظ"-
ديوان المطبوعات الجامعية- الجزائر- 1994.
- 56- محمد الطاهر بن عاشور- "تفسير التحرير و التنوير"- الدار التونسية- تونس-
1984.
- 57- محمد الغزالي- "الأصول الخمسة للقرآن الكريم"- دار الهدى- الجزائر- د.ت.
- 58- محمد محمد أبو موسى- "من أسرار التعبير القرآني، دراسة تحليلية لسورة
الأحزاب"- مكتبة وهبة- القاهرة- ط2- 1997.
- 59- محمود أحمد نحلة- "في البلاغة العربية علم المعاني"- دار المعرفة الجامعية-
2002.
- 60- مناع قطان- "مباحث في علوم القرآن"- مكتبة وهبة- القاهرة- ط10-
1998.
- 61- المناوي محمد عبد الرؤوف- "فيض القدير شرح الجامع الصغير من أحاديث
البشير النذير"- تحقيق عبد الرؤوف المناوي- مطبعة مصطفى محمد- 1938.
- 62- منير سلطان- "الفصل و الوصل في القرآن الكريم"- منشأة المعارف- ط2-
1997.
- 63- وقيدي محمد- "البلاغة العربية أصولها و امتداداتها"- أفريقيا الشرق- لبنان-
1999.
- 64- ويس عمار- "محاضرات في مادة البلاغة العربية- مطبوعات جامعة منتوري-
قسنطينة- 2004.
- 65- يوسف القرضاوي:
* "الإيمان و الحياة"- دار الشهاب- الجزائر- 1917.
* "العبادة في الإسلام"- دار الشهاب- د.ت.
* المدخل لدراسة السنة النبوية"- مكتبة وهبة- القاهرة- ط3- د.ت.

فهرس الموضوعات

الصفحة	الموضوعات
-أ-	المقدمة
-01-	المدخل: خروج الكلام عن مقتضى الظاهر
-02-	أ. مفهومه و علاقته بمقتضى الحال
-05-	ب. صور خروج الكلام عن مقتضى الظاهر
-05-	1- ما يخص الإسناد الخبري
-07-	2- ما يخص المسند إليه و حامل أجزاء الجملة
-13-	الفصل الأول: أسلوب الحكيم في البلاغة العربية و علاقته بمفاهيم الأسلوب
-14-	III- أسلوب الحكيم في البلاغة العربية
-14-	(1) تعريفه
-15-	(2) أقسامه
-16-	(3) أسباب وقوعه
-18-	(4) نظرة تاريخية
-21-	(5) موقعه في البحث البلاغي
-22-	(6) تداخله مع فن القول بالموجب
-24-	(7) أهميته
-27-	IV- علاقة أسلوب الحكيم بمفاهيم الأسلوب
-27-	(1) علاقة البلاغة بالأسلوب
-29-	(2) الأسلوب عند البلاغيين
-31-	(3) الأسلوب عند الأسلوبيين
-34-	(4) مدى توافق أسلوب الحكيم مع هذه المفاهيم

-39-	الفصل الثاني: أسلوب الحكيم في القرآن الكريم
-40-	موضوعاته في القرآن الكريم
-40-	العلم بالغيب
-44-	بيان قدرته عزّ و جلّ
-48-	بيان منافع الناس
-49-	بيان فائدة الأهلّة
-50-	بيان المصروف
-53-	أبعاده في القرآن الكريم
-53-	التوصل إلى الإيمان بالله
-56-	إشارة ملكة التطلع
-59-	عدم ارتقاء العقل البشري
-61-	الأعمال بالنيات
-62-	نشر المحبة و العدل بين الناس
-65-	خصائصه الأسلوبية في القرآن
-65-	المفردة القرآنية
-68-	خصائص أسلوبية عامة
-68-	أ. الجملة الفعلية و الاسمية
-70-	ب. الخبر و الإنشاء
-71-	ج. التقديم و التأخير
-75-	د. المحذوف و الذكر
-77-	هـ. الفصل و الوصل

-79-	الفصل الثالث: أسلوب الحكيم في الحديث النبوي الشريف
-80-	تمهيد
-81-	I- موضوعاته في الحديث الشريف
-81-	1) معاملة الله العباد يوم القيامة
-81-	حشر الكافر
-83-	رؤية الله عزّ وجلّ
-83-	2) رحمة الله للعباد
-85-	1. العبادات
-85-	2. الحج
-88-	3. الجهاد
-89-	إعداد العمل للساعة
-90-	العيد
-90-	II- أبعاده في الحديث الشريف
-91-	1) الأعمال بالنيات
-92-	2) مراعاة حالة المرأة
-94-	3) تكثير سبل الخير
-95-	4) دفع الناس إلى الاجتهاد
-103-	III- خصائصه الأسلوبية في الحديث الشريف
-103-	1) الخبر و الإنشاء
-108-	2) الإيجاز

-109-	(3) أسلوب القصر
-110-	(4) الفصل و الوصل
-112-	الفصل الرابع: أسلوب الحكيم بين القرآن الكريم و الحديث النبوي الشريف
-113-	خصوصية أسلوب الحكيم في كل من القرآن و الحديث
-113-	(1) من حيث الكم
-114-	(2) من حيث المواضع
-119-	(3) من حيث الأبعاد
-124-	(4) من حيث الخصائص الأسلوبية
-128-	تلخيص أهم النقاط
-135-	الذاتمة
-138-	قائمة المصادر و المراجع